اعتدال رافع

الصفر

قصص

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

www.alkottob.com

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

الصفر

www.alkottob.com

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى ١٩٨٨
إيبلا للطباعة والنشر والتوزيع

الغلاف: الفنان عبد القادر أرناؤوط

www.alkottob.com

اعتدال رافع

الصفر

قصص

www.alkottob.com

www.alkottob.com

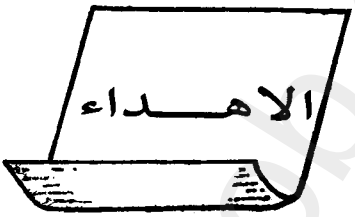

إلى توفيق . .

في زمن لا يمت بصلة الى الشعـــر والفـروسية ونـوق العصافير. تذبح الكلمات من رقابها كالنعاج . . . فتخرج من مكامن همسها متلجلجة النطق .

إعـتـــدال

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

- ١ -

ذقن عبد السميع كانت عريضة في ذلك الصباح، ينفلش جلدها على الرقبة مباشرة. . . لم تكن هناك استراحة لصهيل بين حنكي عبد السميع وتفّاحته.

وأنت ياآمنة يحلو لك الشرود في الصباح وصف الحكي. تتمادين في وساوسك. . وتنقبضين، ينقف لحم رحْمك كأنك تحملين جبلاً. . وتظهر لك ذقن زوجك عريضة، وهي في الواقع ليست كما تتراءى لك، وتداهمك أوجاع المخاض قبل أوانها.

ذقن الرجل ياآمنة تعكس فصول العمر.

واوجاع المخاض لابدّ منها!

تخمّـر العجين ياآمنـة وفاضت حموضته على القلب. . ومهما فعلت لتقصي فراخك وتجنّبينها حموضة زمانك التي تفوق بقبقـة الأسيد خوفاً على غضاريفهم من التآكل والذوبان. . لن تفلحي البتة في مسعاك هذا، فهذا العمل من صنع الجبابرة، وأنت مجرّد آمنة.

يفرش عبد السميع رعوة صابون الحلاقة على ذقنه. .

www.alkottob.com

مع جهجهة الضوء تشردين في بياض الثلج . .

تقتربين من عبد السميع، وباصبعك النحيلة والمرتعشة تنقرين البياض الذي يكفّن الذقن . . وترسمين غمّازتين عند إطلالة الضحك!

من عبثك الصبياني يجرح عبد السميع جلده، ويشوب بياض الرغوة خيط أحمر.

تسرعين في الاعتذار والمغفرة.

تقبّلين الخدّ وتضمدين شفاه الجرح بشفتيك.

تتكفّن شفتاك بالبياض والدم. تكشّين من الهلع:

ـ صباح السمّ ولا صباح الدم ياعبد السميع.

يستمر عبد السميع بتمرير الشفرة على جلده، وأنت ترعفين خوفاً وتشتدّ طلقات الطلق ونقفات رحمك المغموم الأجنّة.

يطلب منك عبد السميع ان تحضري له منديلاً وجوراباً نظيفاً:

ـ لماذا لا تحبين الجوارب والمناديل ياآمنة؟

فتحت الجوارير، قلبت محتوياتها، وفي شرودك كنت تبعدين الجوارب والمناديل عن يديك!

لعنْتِ الشيطان الذي يسرق جوارب عبد السميع ومناديله من الجوارير!

وجواربك ياآمنة منسولة من خيوط المطر.

ومناديل عرسك مغزولة من لُعاب الشرانق . . صرخة الدماء الذبيحة لفحتها بعيداً عنك.

www.alkottob.com

الجـــوارير محتـوياتهـا مبحـوشـة، وأنت لازلت تبحثين وتبعثرين ما هدّك تنسيقه و سرق أعمارك منك.

ـ لماذا فتحت الجوارير ياآمنة.. عمّا تبحثين فيها؟

عدت إلى عبد السميع متعثرة بنسيانك وخيط الدم يابس على شفتيك، وبـطنـك المنفـوخ يتأرجح ويمشي أمامك كأنه النعش.. وكنت خالية تماماً من الجوارب والمناديل.

تدهشـك ذقن عبـد السميع الخـاوية من غمّـازيتـك.. تحملقين في جرحها الذي ينام يابساً على كرسي الخد:

ـ صباح السمّ ولا صباح الدم ياعبد السميع.

من يوم يومهـــا ذقن عبـــد السميع وحنكيه هكـذا.. بلا غمازات، وبين حين وآخر كان يجرحها.. تزّل يده بالشفرة إلى اللحم أثناء الحلاقة ويجرحها لوحده، ما بالك اليوم تبالغين في وسواوسك وتلّحين على تناسق التقاطيع والمسافات والبهجة؟؟ عجيب أمرك ياآمنة، تعتريك أوجاع المخاض وما هلّ شهرك؟

مرة تلو المرة دخلت إلى الغرفة المبحوشة الجوارير وأنت ترددين بشفتيك:

ـ جوارب نظيفة.. محارم أيضاً لعبد السميع.

وفي احدى تلك المرّات، حانت منك التفاتة إلى نفسك:

رأيت آمنـة في آمنتين. واحـدة تسبـح في بركة زرقاء.. والثـانية تجرش الملح على بطنها، حششت الزرقة التي كانت تنمـــو على ضفـــاف البـــركـة، وحـالاً عثـرت على الجـوارب والمناديل.

www.alkottob.com

الاحلام تأخذك إلى دنيا غير هذه الدنيا ياآمنة :

- وآخ . .

بكّرت في شرودك ومخاضك ياآمنة .

- ٢ -

ضجيج الأولاد ياآمنة يشبه ضجيج محطات سكك الحديد . ترقص له الأرض والجدران وصدغيك ، وعندما ينام الأولاد يغفو ضجيجهم على وسائدهم . انتهزت فرصة نومهم ، سندت جبينك المحموم بكفك الرطب كي لا يتبعثر الحلم في صباحات مخاض الضوء . . وتشردي على مدى شرود التعب والهم :

بدأت طقسك اليومي بخزي الشيطان والبسملة وأنت ثقيلة بجنينك التاسع الذي يحبو إلى شهره التاسع . انسللت إلى المطبخ لاعداد الترويقة وفي عينيك تقفز حيوانات برية تلبس بيجامات مخططة بالابيض والأسود .

تضمّين جفونك على ركضها كي لا تبصري حدقاتها الممزّقة بذعر البنادق والبلطات ، والتي كانت تشفّي أقدامها النحيلة عن قاماتها وتضيعّها عن أجسادها . . فتسقط وتغرق مع ملابسها بالدم .

يفور قلبك مع ابريق الشاي ويطوف على البتوغاز والأرض :

ـ أعطاك الله خير هذا الفوران ياآمنة !

www.alkottob.com

بيد تفتحين النمليّة، وبيدك الأخرى تجذّفين الموج وتبعثرين دوّامات الغرق. تمتد يدك القريبة إلى النمليّة. تخرج صحوناً فيها بقايا زيتون وشنكليش وبصل مفروم. تستطيل اليد الأخرى إلى الحقل لتحّش الأشواك التي تجرّح سيقان سنابل الحنطة.

يدخل عبد السميع إلى المطبخ، تصبّين له فنجان الشاي وأنت تتحاشي النظر إلى وجهه. ترتسم دوامات على وجه الفنجان من لفح همومك.

يرشف عبد السميع رشفة.. ويطغي عليك الهدير ..

تتسع الدوامات من النقطة إلى الغرق:

ـ آخ ياولدي..

تسندين بطنك المنهوب بالسكاكين. تهدهدين برفق أوجاع الأجنّة.

يقول لك عبد السميع:

ـ اخزي الشيطان ياآمنة وصلّي عالنبي. تجلّدي من أجل مولودنا القادم (صقر بن عبد السميع الخارج).

تقولين له: حاضر.

أجل ياآمنة الحاضر حضور، والحضور بهجة، لا تهوّلي الأمور وتضخمي الأوجاع وتقولي عن سّرْتك كأنها مذبوحة ببلطة مهووس من مهووسي المذابح[1]، وتكدّرين عبد السميع. أنت تحبينه ياآمنة مهما بدا لمخاضك شكل ذقنه.. والرجل في البيت رحمة حتى ولو كان فحمة!

---

(١) في مذابح صبرا وشاتيلا بقروا بطون النساء الحوامل بالبلطات.

www.alkottob.com

تنفرج شفتاك دون إذن منك. يتقاذفها حنين مقيم في حناياها:

ـ لو كان بيتنا حقلاً ياعبد السميع، لا أبواب له ولا حيطان. كان يستيقظ النبات فينا ويكسونا الندى، ويكبر الأولاد على راحتهم وهم يخضّون في السواقي والجداول والأنهار، يعدون مع الظباء والأرانب، ويصطادون الثعالب والذئاب، ويتدثرون بفرائها. أقطع سّرة جنيني بالحجر اذا ماداهمني المخاض وأنا في الحقل. أضعه في «شقباني» وأحمله على ظهري طوال النهار.. ولا يفارقني نبضه.

عندنا بارودة فرنسية ياعبد السميع، واولادنا يخافون.. بئس لمصيرهم!

منذ اختراع العجلات والأبواب والأقفال والبوارید، كان الخوف..

ولباب بيتنا قفل بستّ طقات؟

صار الخوف يسري الينا من مسامنا محّملاً بالاسمنت والزجاج والغبار والزعيق والهدير والحرامية الذين يسطون على البيوت والأرواح في عزّ النهار.

تغبّر المناخ وأظلمت الطقوس وضاقت النفوس. ضمر الأولاد من الجوع والخوف وقلّة الحركة.. بردوا كثيراً ياعبد السميع.

لو كان بيتنا حقلاً ياعبد السميع لأسكنته رأسي.. وما عرفت العصْبة والحبوب المسكّنة والمهدئة طريقها اليه.

تعبئني بالبذور.. وأطرحها لك يانعة رغم نحولي. عْلى الأرض يبدأ نحولها مثلي. الرحم رحمة ياعبد السميع. كم مرة

www.alkottob.com

ومرة صليّت وتمنيت: لو يعود أولادي صغاراً بحجم عُقلة الاصبع لأعيدهم إلى بطني وأتخلّص من الآم نحولهم وخوفي عليهم.

عشرون عاماً أنهضت لك من سُبات ظلمتي وظلمي ثمانية براعم، والبرعم التاسع على وشك ان يجتاز عتبتي الندّية.. إلى المحل.

ثمان بنات وولد أسميناه «مصعب».

الحمل ينهك الجسد، يهدّ قواي ياعبد السميع.

جنيني لا يحلو له اللعب والرفس إلّا عندما أهجع إلى الراحة. ينزلق من مكان إلى مكان وينط كالطابة في أرجائي. أمدّ يدي اليه لأخفف من نزق تدحرجه ونطّه.. تنطبع على كفيّ الأخاديد.

تشقق بطني كثيراً ياعبد السميع، ما عاد مشدوداً مثل رغيف الخبز الصاج. أحملّك بعض المسؤولية فيما آل اليه حال بطني.

عندما كنت أراك منشرحاً وصافياً، كنت أنتهز فرصتي للدلال. أطلب منك ان تشتري لي حبوب منع الحمل من الصيدلية: الانجاب مسؤولية كبيرة ياعبد السميع وليس شطارة أو فحولة طالما ان القطط والكلاب تنجب توائم؟

وكنت سرعان ما تتغبّش وتُظلم بسرعة، وتقول لي قول الواثق:

يأتي الطفل ويأتي رزقه معه لا تكفري ياآمنة!

ويتضاعف عدد مواليدنا. تشحّ ارزاقنا.. وتلوذ أحجار تنوّرنا السوداء بالفرار.

www.alkottob.com

. . نحلت ذقن عبد السميع كدمعة مفروطة من غُمر مهاجر.

- ٣ -

- برد الشاي ياعبد السميع وأصبح لونه غامقاً، والترويقة جاهزة، ليس عندنا خبزاً كافياً فاخطف رجلك إلى الفرن واحضر لنا بضع أرغفة ساخنة قبل نهوض الأولاد.

صه . . زوجك تعبان ياآمنة، وآن له ان يرتاح من مشاوير الأكل والشرب.

تنادين على مُصعب بخفوت النعس والموت. مصعب نائم لا يرّد عليك لانه لا يسمعك.

يذهب عبد السميع لايقاظه، يبحث عنه بين الأجساد المؤنثة الثمانية المشكوكة على الفرشات كقطع اللحم. يهزه حالما يعثر عليه ويهمس له:

- قم يامصعب.

يفيق مصعب من نومه، ينهض حالاً قبل ان يزول احمرار النوم عن عينيه. عبثاً يحاول رفع بنطال بيجامته إلى خصره ليخفي بطنه وسرّته العارية. يشدّ جاكيت البيجامة إلى أسفل، وأيضاً لا تطاوعه بالنزول. ويبقى بطنه والتوتة الشامية الناتئة على خاصرته اليمنى ظاهرة للعيان. كبر مصعب وصار في الصف الخامس الابتدائي، والبيجامة المقلّمة بالأبيض والأسود أصبحت ضيقة عليه وقصيرة على قامته. يحشر مصعب جسده فيها عنوة. ولا يدع ضيقها وعتقها يُفسد بهجته الصباحية «بالدحاحل». يفتح درج مخلّع يتناول كمشة «دحاحل» ويدّسها في جيوب بيجامته.

www.alkottob.com

مهما كبر الأولاد فإنهم يستمرون أطفالاً في عينيك وخوفك ياآمنة.

مصعب يزداد طولاً وجمالاً يوماً عن يوم. يفرش ظلّه على وجهك وحيطان البيت.. وغداً سوف تكبر الطاقات التي تتسرب منها الشمس والعصافير اليك.

يفتح مصعب الباب ويخرج منه إلى الفرن كالريح. خشخشة الكرات الزجاجية الصغيرة التي تصطك في جيوبه تسبقه إلى الخارج:

ـ لا تتأخر يامصعب.

ـ محروس ياولدي.

تضمّين شغافك ياآمنة على الحيوانات البريّة التي ترتدي بيجامات مخططة بالأبيض والأسود.

ـ ٤ ـ

لأن الفرن كان مزدحماً بطوابير الجائعين. فرد مصعب «دحاحله» عند جذع الشجرة في منحدر الجادَّة. عانق بأصابعه واحدة حمراء ونقفها.. تراكضت «الدحاحل» وارتطمت ببعضها محدثة صوتاً زجاجياً.. شاحنة كبيرة كانت قادمة من أعلى الجادّة بسرعة جنونية لم تمكن سائقها من السيطرة على فراملها. كسرت الشجرة وسحقت «الدحاحل» واصطدمت بجدار بناية قريب من الشجرة.

الخبطة الآتية من اصطدام السيارة في منحدر الجادة، أعقبها ضجيج كضجيج الكوارث.

تنهنهت الحناجر وأركان المنزل بالصراخ:

ـ تأخر مصعب وبرد الشاي ياعبد السميع.

www.alkottob.com

خرج عبد السميع إلى الشارع ولحقت به ياآمنة حاسرة، حافية. تاه منك عبد السميع في الحشر الذي تجمعت حشوده في لمح البصر، وسدّ منافذ الجادّة أمام عينيك. انحشرت بين الناس وأنت تجذفينّ ببطنك وكوعيك وصراخك. لم تلمحي اخضرار الشجرة التي كانت واقفة على كتف حيكم منذ عشرين عاماً. رأيت ظهر شاحنة سوداء مبقّعة بالطين.. ولم تتمكني من الوصول إلى دواليبها.

تطلب منك امرأة كانت واقفة بين الجموع ان تغادري فوراً إلى بيتك كي لا تجهضي جنينك من بشاعة المنظر الذي يستلقي تحت دواليب الشاحنة.

تسافرين ياآمنة التي يحلو لها الشرود وصف الحكي إلى الهدير!

- صباح السم ولا صباح الدم ياآمنة.

(كان ياما كان في جنون هذا الزمان صبي في العاشرة من عمره يلبس بيجامة قصيرة وضيقة مقلّمة بالابيض والأسود، اسمه مصعب، أرسله أهله إلى الفرن ليشتري لهم خبزاً. كان الفرن معجوقاً بالناس، فاستغل مصعب هذه الفرصة وفرد «دحاحله» تحت الشجرة وراح ينقفها.. وبينما كان نشواناً بالأصوات الصادرة عن تدحرجها، تدحرجت اليه شاحنة كبيرة واستقرّت دواليبها الأمامية على قسمه السفلي بعدما كسرت الشجرة.. وبقيت يداه في الهواء تنقفان «الدحاحل».)

ينحّل عبد السميع صرخة في إطلالة (صقر بن عبد السميع الخارج).

تشردين ياآمنة في الهدير وانت مسكونة بقسوة العجلات.

دمشق ١٩٨٦

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

تسري الشائعة في الهواء.. تتقاذفها الشفاه مع الأنفاس. تتخطّى الحدود والسدود إلى أماكن قصيّة مسكونة بالعفاريت والجن والأنصاب والاطلال والأوابد التاريخية والمستحاثات والناس المتعبين:

(ـ منية القلب مجنونة، جنونها خطر، لا تقربوها لأنها ممسوسة، يوم الخميس وهو موعد حمّامها دلقت ماءً مغلياً على الأرض دون ان تتعوّذ من الشيطان الرجيم وتُبسمل وتستأذن الأسياد. تضايق الجن الذين يسكنون تحت بلاطات حمّامها وغضبوا من عبثها وقلّة اكتراثها.. ولطشوها..

يالطيف الطف بنا، جنون النساء أشدّ هولاً وشراسة من جنون الرجال. (الله يثبت علينا العقل والدين.)

.. ومُنية القلب تنفي جنونها نفياً قاطعاً، وتؤكد ان لا علاقة للجن فيما حدث لها. وان كان هذا الحدث الرهيب قد توافق مع موعد حمّامها.. فمن قُبيل الصدفة فقط، وتعترف انها دلقت ماء مغلياً فوق بلاطات الحمّام، فعلت ذلك وهي في غاية الاستعجال، ومعاذ الله ان تكون ملحدة! تجاوزت طقوس دلق

www.alkottob.com

المياه المغليَّة فوق الأرض، وكان همهّا منصبّاً على تنظيف بلاطات الحمّام من الحيوانات المنوية التي قذفتها الزواحف والحشرات لايقاعها في الشرك الذي أوقعت به صديقتها كريمة من قبل. . فمنذ موت كريمة الذي اكتنفه الغموض اصبحت منية القلب مسكونة بهاجس «تحبل البنت من بلاطة الحمّام»، لذلك صوبنت أرض الحمّام وغسلتها سبع مرات حتى أصبحت لامعة ومصقولة كمرآة. . لا أثر للحيوانات المنوية عليها:

منية القلب سبيعيّة وتحب رقم ٧.

رقم سبعة مشقول الذراعين إلى أعلى ومتأهب للعناق دائماً. . لا يتعب من تسبيح ربّه، أشياء وأشياء تحشر في عناقه عنوة!

الله خلق الدنيا في سبعة أيام.

على كل حبّة رز سبع آيات قرآنية.

والمقاتلون والمغامرون يأخذون صور تذكارية وهم يرسمونه بأصابعهم ويضحكون.

تتعرّق منية القلب وتزفر تعبها، تسفح جلدها فوق أرض الحمام. تخلع مَحْبسها وتحلّ شعرها الطويل من دبابيسه.

تغتسل وهي مطمئنة تماماً.

الاطمئنان ضروري في الحمام ليكتشف البنات جمال أجسادهن. . ويغنينه.

غطّاها بخار أبيض. . وصارت منية القلب جزيرة نائية ملفَّحة بالغيم.

www.alkottob.com

تراقصت أطياف رطبة فوق شفاهها وأهدابها كان لها زخم جياد راكضة.

امتطت منية القلب جواداً وعانقت خاصرتيه بجسدها وصوتها، وانطلقت في مدى السحب وكانت تغني «يلبقلك شك الألماس دروب دروب».

الغناء في الحمام يجلي الغم عن القلب.. وانجلى غمّها. تشرّب جلدها بالماء ودلكته بكيس الحمام الخشن وفصلت عنه تراكمات اللهاث والتعب. ثم غطّته برغوة وافرة. تتطايرت فقاعات الرغوة القزحيّة الألوان، وكانت منية القلب تراقبها وتنفخ عليها.. فتتأرجح الفقاعات بين أنفاسها والجاذبية. ثم تحط على جسدها وتنفلش.

الفقاعات نجوم والماء مطر وجسدها الأرض.

يتجسّد حلمها، تراه وتشمّه، ويتدفق في عروقها مع الدم.

هي هكذا دائماً.. تحلم. تعيش حلمها وتتنفسّه. حتى عندما يأخذها النوم إلى سلطانه، تنام وهي مفتوحة العينين، ويقولون عن نومها «غزلاني».. وهي لم ترى قط غزالاً نائماً أو راكضاً إلّا في أدغال الحلم.. وعينيها.

وتصدق منية القلب احلامها أكثر مما تصدق خوفها!

(منية القلب وقحة تغني في الحمام!!

ـ لماذا تغنين يامنية القلب في الحمام؟

ـ حتى لا يجف الماء عن جسدي.)

www.alkottob.com

صارت منية القلب نظيفة، وخرجت من الحمام ورذاذ الماء يتساقط من نهايات شعرها، ووجهها عابقاً بالصبا. في تلك اللحظة التي اقتربت من المرآة لتمشط شعرها لا تدري ماذ حلّ بها. للوهلة الأولى خيّل اليها انها انكسرت مع المرآة.. وتبعثرت وتناثر صراخها في كل مكان. خرج من شقوق النوافذ والأبواب.. وكف عقلها ان يكون عقلاً. بينما كانت ترفع يدها بالمشط إلى رأسها، طوّقتها جثّة كانت ترتدي ربطة عنق فاتحة وملابس داكنة. ضغطت الجثة بقسوة على يدها.. أنغرست أسنان المشط في كفهّا وأحدثت فيه ثقوباً حمراء.

(ـ الصراخ فضيحة.)

طقطقت الجثّة بفكيها الغائرين وخطفت شفتي منية القلب من مكانهما وضغطت عليها باسنانها الصفراء.

(ـ الجثث ترفل بأكفانها في القبور لا تتحرك وتمشي وترتدي ملابس الأحياء وتدمي كفوف الصبايا وشفاهن.)

ولم يصدقها أحد.

وحكموا عليها بالجنون.

طافت بها أمها والجارات على أضرحة المباركين وأصحاب الكرامات. رقوها.. وحمّلوها التعاويذ والحجب، وبخروها بدخان بذور «نبات الحرمل وكشّه الثوم والنعناع اليابس والشبه وورق الشجر الأخضر».

دمعت عينا منية القلب وسال أنفها.. وبقيت ممسوسة:

لا علاقة للجن فيما حدث لها.

www.alkottob.com

ومنـذ ذلـك اليوم أصبحت منية القلب محـاصرة. الجثّة تقتفي أنفـاسهـا، والشـائعـات تلاحقهـا، وهي تركض وتصرخ وتدافع عن الجن لوحدها!

. . وعيناها مسكونتان بالغزلان . . والمروج لم تبارح قلبها، ولكنها كانت تضيق بركض الغزلان . . وأحياناً كانت تسمع صهيلاً يناديها، تعانق الصهيل وتتشرنق داخل نفسها وتصبح كثيفة ناصعة كالحرير.

(ـ أنا لست مجنونة امتحنوا عقلي ان لم تصدقوني، إذا سألتموني عن الحب، الجواب جاهزاً على رأس لساني ونهاياتي المتـوفـزة: احبّ الله وأنبيائـه وانتم والشـرطي وسـاعي البريد وموظف البلدية.

ـ كاذبة لا تصدقوها.)

وبالفعل كانت منية القلب تكذب. ما باحت لأحد بحبها للجياد والفـراشات والغزلان وحصى الينابيع المفلطحة ورائحة التراب بعد المطر وجزر الغيوم الوردية في السماء عند الغروب والألـوان الـليلكية. كانت تعتقـد هذا البـوح لا يعبـر عنـه بالكلمات . . بل بالرقص، وهي محاصرة بجثة وشائعات تمضغها مثـل قطعـة البـان، واحلامها لا تزال بضة الأعناق توّد لو تصل شهقتها الأخيرة إلى حدود الشفاه لتنداح بخاراً مع السحب . . أو مزماراً في الهواء.

www.alkottob.com

عصيان غير معلن . .
وتوغل في غابات الحلم .
الجن والعفاريت والجثّة والناس يلاحقونها، يهجمون عليها، وتضيق الحياة على أنفاسها .
في نومها وتعبها تنفتح القبور وتخرج الجثث بعظامها المجلودة بالبرودة . تطالب بحقوقها المقدّسة في كينونة الأنفاس والجسد .
تعلن منية القلب جنونها الأبدي .
تنطلق وتركض وترقص عشقها واحلامها وجمال جسدها (المبلول) .
(ـ منية القلب مجنونة، جنونها خطر، لا تقربوها لأنها ممسوسة .)
لا . .
اذا ما صادفتموها في الصباحات، وعادة تكون نديّة مثلها .
اشلحوا جلودكم وابتسموا لها، فجنونها ليس خطراً كما يزعمون .
لا تصدقوا الشائعات .

دمشق ١٩٨٦

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

دخل عنتر الثاني إلى البيت كالسهم المشتعل وهو يخفي قَرعته بيديه وينزّ عرقاً.

كان الجو حاراً والذباب يطن ويهرب من الوهج إلى الظل والأماكن الرطبة. سحابة سوداء من الذباب دخلت خلفه.. لم يحسّ عنتر الثاني أبداً بكثافة الذباب الذي التصق برقبته العارية اللزجة، ولا بلسعاته، كانت بقايا شعره المحلوق تندس في رقبته وصدره وتوخزه كالإبر. كما انه في دخوله المستعجل لم يلاحظ وجود عنتر الثالث الذي كان يمدد جسده على عتبة البيت ويتحيّن الفرصة للخروج، فداس على ذيله وصرخ عنتر الثالث من الوجع، قوّس ظهره وشخر ونفخ ونطّ على ساق عنتر الثاني وخرمشها ثم هرب وهو يطلق صيحات غضب واحتجاج ويهمهم بشتائم غير.. مفهومة:

عنتر الثالث يعبّر عن وجعه وغضبه بطريقة بدائية فظّة. كل القطط تفعل ذلك!

وهو عنتر الثاني لا يحذو حذوه مطلقاً..

www.alkottob.com

كان عنتر الأول جالساً على بقايا كرسي هزّاز يهّز جسده المتعب. مرّ عنتر الثاني من أمامه وكان لا يزال يخفي قرعته بيديه، فأطلق عنتر الأول ضحكة مجلجلة عندما رآه على هذه الحالة، وأمّه في هذه الأثناء كانت في المطبخ لا تدري ماذا حدث لعناترها الثلاثة.

انبطح عنتر الثاني على بطنه في منتصف الغرفة قبالة المرآة مباشرة، كوّع ساعديه بزاويتين حادتين وأخفى وجهه.

لم يتجرأ على النظر إلى نفسه في المرآة ابداً.

كان ضحك عنتر الأول ينهال على صدغيه كالمطارق.. ويصدّعه ويستدر الدموع من عينيه:

(ـ لو كنت تدري ايها الولد، ياعنتر الثاني، إن في يوم الاربعاء ساعة نحس، والزيرو تعني صفراً، وعنثرة الأصلي اسمه ينتهي بتاء مربوطة وحياته ملحمة، وان بيتاً كبيتكم مأهولاً بثلاثة عناتر ـ عشيق وولد وقطّ ـ من الطبيعي ان يتعرّض للاهتزاز في زمن لا يمت بصلة إلى الفروسية والعشق والشعر ونوق العصافير، لرفضت منذ البداية اسمك ووجهك وعمرك، ولكن من اين لك ان تعرف كل هذا وشعرك كثيف كالغابات وأنت دون العاشرة ومربوط إلى امّك بقوة انتمائك إلى الطبيعة؟؟ ومن أجلها كنت تحبّ عنتر الأول وتسمع كلامه وترضخ لأوامره حتى لو قال لك ارم نفسك في البحر لفعلت ذلك.. من أجل استمرار الحب والتلاحم. من قبل لم تكن تخجل ابداً ببنطالك القصير الذي كنت ترتديه في أول فصل الصيف وتخلعه في آخره.

www.alkottob.com

لم يخطر ببالك ان تصبح أقرعاً في يوم من الايام.
في يوم الاربعاء، ساعة نحس ياعنتر الثاني،
والزيرو تعني.. صفراً.
منحوسة تلك الساعة التي امتثلت فيها لأوامر عنتر الأول وحلقت شعرك عالزيرو.
اجتاحك الهرم وقطّع انفاسك.

ولأول مرّة سمعت من عنتر الأول كلمة زيرو، وفسّرتها في قاموسك الطفولي على انها شيء رائع مثل (سابو)، وقلت لنفسك جميل شعر (سابو) الذي شاهدته في السينما وهو يتأرجح من اللمعان.

الآن فقد أدركت ان الزيرو لا شيء.. نقطة سوداء صغيرة بحجم رأس الدبّوس، وشعرك الذي كان طويلاً وكثيفاً كالغابات.. صار صفراً!

حتى تلك اللحظة التي جلست فيها على كرسي الحلاقة عند الحلاق «أبي ياسين»، كنت خالي البال لا تشكو من أي شيء على الاطلاق سوى حكّة شديدة في فروة الرأس. ملعونة هذه الحكّة التي كانت تدعوك لغرس اظافرك في جلدك وهرشه حتى يسيل منه الدم. النظافة عدوّة الحشرات، وخاصة تلك التي تندّس في أدغال الشعر ومسام الجسم وتسبّب الحكة والهرش. (النظافة من الايمان) هكذا علمّوك في المدرسة. أنت مؤمن وتحب النظافة حتى لو لم يعلّموك هذا في المدرسة. شحّ المياه وانقطاعها عن الصنابير وعدم توّفر الصابون، يُبطل كل قيمة لكلام

www.alkottob.com

الكتب والنصائح . كنت تملأ الدلو من الفيجة كي يستحم عنتر الأول وأمك . يعلو صدرك ويهبط . . يعلو ويهبط من ثقل الدلو، ويتـأرجـح بين يديك وترقص مياهه وتفيض وتبلك مع ملابسك وتشعر بالانتعاش . :

الاستحمام ضرورة للكبار اكثر من الصغار لأنهم يتوسَّخون بسرعة .

والأمهات تحب رائحة أولادها . . وتطيقها مهما كانت، ولا تحب رائحة الرجال اذا لم تكن زخمة بعطر الرجولة والصابون .

عنتر الثالث يتمدد على خاصرته كل يوم وهو يفلّي جسده ويحكّه بأسنانه ويلحس صوفه بلسانه حتى يصبح لامعاً .

وأنت تذهب إلى النهر الشحيح الأخضر كي تستحم فيه . تعلق الحشـائش والنفـايات في شعـرك وتلتف حول جسمك . تخرج من الماء مبتلاً ورائحتك تشبه رائحة حراشف السمك .

تعوّدت ياعنتر الثاني ان تقصّ شعرك في الأعياد .

أعطاك عنتر الأول نقوداً وقال لك، اذهب إلى الحلاق .

كنت تظن ان العيد على الأبواب . . والعيد لازال بعيداً أيها التعس .

كما انك لم تلاحظ الفرق اللغوي بين القصّ والحلاقة .

قال لك إحلقه عالزيرو، وفي السابق كان يطلب منك ان تقصّه .

هل فعل ذلك ليسخر منك كما يفعل الآن؟ .

لا . . لا تشـك بصـدق نواياه . إنمـا فعـل ذلك ليجنّبك

www.alkottob.com

الحكّة، وضحكه اليوم ليس جديداً عليك. هل نسيت انه كان دائماً يضحك ويهزّ قدميه؟

ما بالك اليوم تتلوّى من الألم كلّما سمعت ضحكه؟ لم يتغيّر شيء.. أنت الذي تغيّرت، وعنتر الأول مازال شهماً يقطع اللقمة عن فمه كي تشبع مع أمك.

العيب ليس فيه. العيب فيك أنت:

للزوجات الأرامل الحق في الحياة بعد وفاة أزواجهن، ولو كان أباك هو الأرمل، له الحق ان يتخذ اكثر من زوجة وعشيقة!

آخ.. صار الأمر معقداً وصعباً ياعنتر الثاني.

انت تحب أمك وتغار عليها، وحبّ الأولاد لا يطفىء ظمأ الأمهات.

استيقظ فيك الرجل، ولو عرفت أديب يومها، لما سمحت لعنتر الأول بتخطي عتبة داركم.

في الماضي لم تكن تبالي بتحاشي اولاد الحارة لك كأنك طاعون، وأنت تحبّ اللعب معهم وتتحرق إلى رفقتهم. في البيت كان عنتر الأول وأمك يداعبانك حتى تشبع لعباً.

اليوم تركض وأنت خارج من عند الحلاق أبي ياسين. تتمنّى ان تنشقّ الأرض وتبتعلك مع قرعتك حتى لا تقع عيناك على أولاد الجيران.. أو تقع نظراتهم على عريك.

لم تسأل نفسك يوماً عن الأسباب التي جعلت اسميكما وملامحكما متشابهة أنت وعنتر الأول. كنت تؤمن ان الحب يوّحد بين القلوب ويقرّب شبه الملامح إلى بعضها. اختلف الأمر ياعنتر

www.alkottob.com

الثاني، انت صورة مصغرة عن عنتر الأول وهو ليس بأبيك وفيه ملامح غزاة القرن العاشر ميلادي، وعمّا قريب سيصبح لك مثل شاربيه الشبيهين بشاربي «ايرول فلين»، والفرق بينك وبينه هو اختلاف شكل الأنف. أنفه بارز النتوء مطعوج في وسطه.. وأنفك مستقيم وحذاؤك مطعوج عند الكعبين.

في اللحظة التي بدأت كتل شعرك تهوى على كتفيك. أحسست بثقل جبال الجليد تنهال عليك وتحني ظهرك. بردت.. وشعرت ان شيئاً ما، أملس وطري يتجعّد في لبّ سنواتك العشر.

قل لي ياعنتر الثاني لماذا تتحاشى النظر إلى نفسك في المرآة؟ خجل انت بقرعتك؟ والقرعة ليست عاراً، المصارعون يحلقون شعورهم مثلك. ارفع رأسك وانظر اليه في المرآة واضحك..

قم على حيلك، وجاذب عنتر الأول أطراف الحديث. أنت جائع وعمّا قليل سوف ينضج الطعام وتأكلان وتشبعان وتضحكان وتلعبان.. وفي الليل تتحلقان حول أمك كمجرَّتين. أنت تنام على يمينها، وعنتر الأول على يسارها، وعنتر الثالث تحت قدميها. حرارة جسدها تمدّك بالسحر، وعطر أنفاسها يأخذك إلى الربيع. تنام وينام عنتر الثالث، ولأمك الحق بعد نومك ان تدير لك ظهرها وتشرّع وجهها باتجاه القلب. في الصباح عندما تفيق ورأسك على زندها، تراقب وجهها الغافي

www.alkottob.com

المشـرق الذي ينضح بالسعادة والحب. تبتهج.. وتحبّ عنتر الأول الذي أشرق أمك وجَمّلها كالربيع.

حلاقة الشعر عالزيرو لن تغيّر من الواقع شيئاً ياعنتر الثاني.)

نهض عنتر الثاني، وفوراً زرع رأسه في المرآة.

انقلب الاثاث وتكسّرت الأواني. سقط عنتر الثاني على الأرض وتوقف عن الضحك. فانقلبت طنجرة الطعام من على بابور الكاز واندلقت على قدمي أمه.

وبقي عنتر الثاني بلا طعام.. بلا نوم.. بلا حب أو حكايا.

دمشق ١٩٨٦

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

أنفاس كانون ثلجية.

والقرية كانت عالية عن سطح البحر، بيوتها متباعدة وتعدّ على الأصابع، وأشجارها كثيفة وغزيرة مثل شعر الرأس.

«لطيفة» كانت شجرة صفصاف لفحها البرد واحتقنت به، فتوّرمت رئتاها ومجاريها التنفسية. داهمها سعال متواصل واقشعر بدنها من الحمّى.

أغلقت لطيفة مخدعها وعينها على بواكير الخضرة، ولزمت فراشها:

ـ لطيفة بنت سليمان أنت بين يدي الله الآن استعدي لعناق طويل أنحلك انتظاره.

صفرّت رياح كانون، حمل الصفير إلى لطيفة نداء مراكب بعيدة:

ـ طالت غيبتك ياامرأة. كيف حال الزيتونات؟

ـ اشتقت اليك ياامي. كيف حال البيادر؟

توّردت لطيفة من صوت النداء واشرقت عيناها، ورقص الشوق على شفاهها.

www.alkottob.com

أدارت نفسها إلى جهة القبلة وابتهلت إلى ملاك الموت ليأتيها ويعجّل في اخذ وديعته، ثم رفعت سبابتها اليمنى وتشاهدت.

(طارت لطيفة على بساط الريح، حط بها البساط على سطح بيت ريفي معشوشب وعليه مدحلة من حجر. نزلت لطيفة من مدخنته المسطومة بالشحّار:

ـ لابارك الله في خلقة البنات.

تشحّرت لطيفة وصدقت سوادها مرة أخرى.)

في ذلك الكانون من الخمسينات كان عمر لطيفة خمسين سنة.

وأبواب بيوت القرية كلها خشبية وعتيقة. ناطحها الزمن والريح وأحدث فيها شقوقاً وحرشف ما تبقى من مساحاتها. عالج الناس تلك الشقوق وسدّوها بروث البقر والخروق. وكانوا في الصيف يتركونها فاغرة على حالها لتدخل النسمات من خلالها اليهم.

اشتدت العاصفة وزأرت غاضبة. اختبأ الناس في بيوتهم ومترسوا أبوابهم من الداخل.

تحلقوا حول الكوانين يلقّمونها بالحطب ويستدفئون بالوهج والذكريات:

لكل منهم ربيعه.

للكبار ربيعهم الماضي.

وللصغار أيضاً ربيع أجدادهم وآبائهم.

www.alkottob.com

«ولـطيفـة تركض فوق الثلج، تهـز اشجـار الـزيتـون والسنـديان. تحـوّش ثمارها وتملأ أذيالها وعبّها. تلسعها برودة الثمار التي لا تلبث ان تسخن من لفحها. تفرّغ ثمارها في طبق القش امام أخيها عباس الكبير:

ـ لطيفة تستحق ان تأكل اليوم لأنها اشتغلت بثمن رغيفها.

يقول عباس لزوجته.

لطيفـة لم تمتـرس بابهـا، كانت واهنة على الزحف اليه واغلاقه بالمسمار «المطعوج» الذي دقته بالجدار.

ولأنها واهنة.. فهي لا تخشى الأقوياء.

صفعت الريح باب مخدعها وفتحته على مصراعيه. شرد الثلج إلى داخل المخدع وابتّل الحصير والبساط وتحللّت ألوانه. كما أصاب البلل الصندوق الذي كانت لطيفة قد وضعته في صدر المخدع من زمان، وخبأت فيه أسرارها وحنينها وجللته بغطاء من الحـرير الأخضـر. ثم بدأ الفراش الذي كانت تنام فوقه يتشرب الرطوبة ويعبّ الثلج بنهم.

في الصنـدوق كانت تنام أشياء جديدة من إبرتها: قمباز دمشقي، ملابس طفـل، طرحـة بيضاء وقفازات عروس، وأطر لوسائد ووجوه طراريح ومناديل مطرّزة بشغل الابرة والسنارة.

وخـز البـرد حنين لطيفـة النـائم في الصندوق.. تمطّى وصهـل. نهض اليهـا وعانقها. انتشرت مع ندف الثلج الشارد اوراق عطر وورد جوري وأغصان حبق كانت مندّسة ومعرّشة بين طيّات الحنين، وانضّمت اكليلاً لبس رأس لطيفة النائم على الوسادة.

www.alkottob.com

صارت لطيفة عروساً زفّتها السنديانة الواقفة أمام باب مخدعها بمواويلها الحزينة وشيعتها بالدموع إلى بساط الريح.

ـ انا لطيفة بنت سليمان اوصي بأملاكي، الصندوق والبساط والحصير ودست النحاس وطبق القش وزلع الفخّار وجلّ الزيتون، إلى حياة بنت ابتسام قابلة القرية.

قرأ عباس الوصيّة أمام ذكوره تحت السنديانة وبصق.

«كانت حياة في البريّة تحمل سلّتها وتمشي حافية لا تبالي بالبرد، تجمع القواقع التي كانت تشدها رائحة الثلج من اوكارها في الصخور كي تتزاوج فوق الثلج. تشويها حياة في الموقد وتستمع إلى وصيّتها وهي تئن تحت الرماد قبل ان تأكلها:

ـ أنا القوقعة البيضاء.. أوصي بلحمي وشحمي إلى حياة، وببرازي إلى عباس الطمّاع.»

مزّق عباس الوصية وهو غاضب:

ـ لا وصيّة لوارث.

وذهب مع اولاده إلى مخدع لطيفة التي كانت مدثرة بالثلج مع فراشها.

نهبوا اشياءها بعد ان افتضوّا بياضها وحنينها بأصابعهم الخشنة.

دمشق ١٩٨٦

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

- ١ -

عقب انفجار عنيف أطاحني من زاوية إلى زاوية، ترجرجت. . وتقيأت ذاكرتي. لم يسعفني لساني المربوط سوى بالعواء. . وبعدها استغرقت في الذعر وأنا أنبض كرقاص الساعة، واجتاحني كساح أعمى، ونَدَهت:

- ياأمي. .

في الضيق نَنْده أول ما نَنْده امهاتنا والله والأنبياء.

وهذه الحرب أقصت ارتعاشاتنا عن حنانها، والمليشيات احتكرت الله والأنبياء وطوّبتهم باسمها.

كان لابدّ لي من صدى حنان أو قداسة، أو حتى قشّة نجت من طاحون الجنون لأتعلّق بها وأبحر إلى حواسي مرة أخرى.

أنا مشعّثة ومغبرّة وممزقة ومهروسة اللحم عند تضاريسي الناتئة. أذيالي نديّة، وأزيز الرصاص يشفط ذرات الهواء من حولي، يفخخها ويفرقعها.

www.alkottob.com

هدهدت عيني وأذني :

ـ ياعيني لا تتعبي من خرابــك فأنت لازلت مرآة دمعي . اغتبطي بما تبقى لك من بريق قبل ان تطفئك سيجارة مهووس بإطفاء العيون . . لتشهدي ! !

ويأأذني التي تشبه الغرامافون ، موْسقـي انفجاراتك قبل ان تشفيّك سكين مهووس بقطع الآذان . . لتحكي .

نحن لازلنا على قيد الحياة .

بذلت جهداً للملمـة ما تبعثر فيّ في زاوية آمنة تقع بين عضاضتين ، وأنا أنحشر فيها بطولي وعرضي وارتعاشاتي ، تذكرت ان العضاضات في الماضي كانت تحمل البيوت وتحميها :

وبيت جارتي آمنـة شفـطتـه قذيفـة فراغية مع عضاضاته وسقوفه وجدرانه وصخبه أثناء الاجتياح الاسرائيلي .

العضاضات فقدت متانتها في زمن الفراغيّات .

تجرّحت كفاي وأنا أبعد الزجاج والاسمنت عن مقعدي . نفخت عليهمـا وفـركتهمـا ببعضهمـا ، واسنـدت حالي إلى العضاضة التي كانت ساخنة من مفعول البارود .

- ٢ -

تعوّدت عقب كل انفجار عنيف ان أطاطىء رأسي وأدسّه بين كتفي . . ثم استغرق في الذهول . وعندما أفيق أجد صعوبة في رفع رأسي إلى فوق . . للتضرع .

www.alkottob.com

وهذا الانفجار الذي حدث كان أقواها جميعاً:

في السقف فجوة كبيرة سوداء أحدثتها قذيفة وحولها دخان محروق.. والفجوات السوداء في السماء تلتهم النجوم. كما كانت هناك فجوة أخرى في أعلى الجدار تجاهلتها عن عمد حتى لا أرى الصرصار الذي كان يزحف مذعوراً ويتخبط في الاتجاهات. فأنا من شدة الارهاق لا أستطيع ان أقارن حالي بحاله، وذعري بذعره، كما انني تجاهلت الهاتف الذي استيقظ مدوياً في داخلي، والذي كان يؤكد لي قرابتي للصرصار. (وخلقنا الانسان في أحسن تقويم)، وألف ألف لعنة على داروين والغرب الذي قرّبنا من الصراصير.

التصقت بالعضاضة اكثر وأنا أقلّص قامتي المرتعشة وأسخر من تلك النقطة السوداء المتراكضة إلى السقف حيث توقفت في حذاء الفجوة ومدّت لي قرني استشعارها مودّعة قبل خروجها إلى السطح، مؤكدة لي بطريقة ما.. تعاطفها معي.

ـ إلى الجحيم أيها المخلوق اللزج.

لمّا غاب الصرصار عن ناظري شعرت بالوحشة.

(حسدت الصراصير لأنها تستطيع ان تمشي على الحيطان وتتسلّقها إلى السقف.)

أترقب ظهور الصرصار من جديد وأنا ملهوفة. تطل عيناي على زرقة السماء المموَّه بالدخان، فالفجوة التي احدثتها القذيفة احتلّت ثلثي مساحة السقف بعد ان أكلت نصف الحائط..

www.alkottob.com

وهـروب الصـرصار من فجوة السقف شدّني إلى السماء التي سرعان ما ارتددت عنها لأنها غائمة وفيها دخان وقذائف. . إلى المصباح الذي كان يتدّلى سلكه في الفراغ إليّ متكئاً على قضيب حديد عار. فرحت بالمصباح لأنه مثلي لا يزال على قيد الحياة معلقّ في مكانه، يتأرجح ويرتعش في القذائف، ينطفىء حيناً ويضيء أحياناً، وتـدور حولـه الفراشات في الليل وتخرّ صريعة العشق الضوئي.

القذيفة أخطأتني مع المصباح. تذكرت شيئاً هاماً وهتفت مثل نيوتن:

ذاكرة العشق مرتبطة بذاكرة الضوء وبئساً للقذائف العمياء في مسـارهـا الجهنمي الـذي لا يميز بين السقـوف والجـدران والصراصير والناس والمصابيح.

وأظـل محشـورة في زاويتي أعـانق العضاضتين وأهرول بأنفـاسي إلى الكـون الغـارق في سبات البورصة والمخدرات والفقر والأيدز.

- ٣ -

زمن الحرب بلا نهاية.

والعمر محصور بين طلقة وشهقة.

المـدنية التي كانت تمنحنا الحياة كلها والضجر كله. . باتت تسرقها منّا بطرفة عين.

www.alkottob.com

أزمّ عيني ولا أطرفها. أسدد سهامها إلى السماء وأنا أجمع ذكرياتي من قافلة الرحيل والسفر لأستمتع باللون الازرق الذي نسيت طعمه وملمسه. وكان لابدّ لي من شدّ رقبتي إلى فوق لأغرف الزرقة من حجب الدخان والأزيز. لما فعلت ذلك، ارتفع أنفي تلقائياً ولحقت به ذقني. نهض صدري من انكساره.. وتدغدغت. كأنما أصابع حانية ألفت مداعبتها وضحكها اجتازت عتبات الذبح ومتاريس الخطف وبوابات الرحيل.. وسافرت الي. داعبت خاصرتي الضامرتين ونقرت حلمتي اليابستين..

كان لدغدغة الأصابع المشتاقة طعم التفاح والسكر. أتذكر بوضوح من زرع أصابعه في عناق جرحي، هذا الأحد غيّبت الحرب طلّته عني.. ولا يزال حاضراً في ذاكرة الجسد.

في ذكرياتي السحيقة وقرابين بعل السخية اريق دمي وأريق دمي وأنبت الزنابق والأقحوان وشقائق النعان والأجنة. بدّلت جسدي الذي كان يعتق كل مرة من الطهارة بجسد جديد، وكان يعتق وأبدّله لأنني احب الأشياء الجديدة. البوذيون يقولون ان الموت يهب الحياة معنى وكوناً.

يطلّ جسدي في انبعاثه، تتفتح حبيبات العرق كالدموع على مسامه، ويصر على أنه تقمّص الشجرة والماء والعصفور والطفل والشمس والقمر، ويدّعي ان الله يحبّه كثيراً وفي الآتي سيصنع له جناحين من أمواج البحر.

www.alkottob.com

أنبش حبيبي من مسامي لتدغدغ ذكراه ذكرياتي وسمرة عنقي واخضرار عيني وزرقة السماء (تحديد المسرّات بمسارات الدمع يطمسه العطش والجوع وشبح الموت في زمن الحرب الأهلية).

قبل لحظات.. أيام.. شهور.. سنوات. سمعت انفجاراً شديداً طأطأني. تدلى رأسي الممشوق بصواري سفن الارجوان إلى كتفي كما يتدلى رأس مشنوق من حبل المشنقة.

تكررت المرات التي كنت أهبط برأسي فيها. حتى تقوّست تجويفاً أشبه بمغارة أختبىء فيها عقب كل دويّ. استمرار الحرب قولبني مغارة أدس فيها لحمي المرتعش كالسلحفاة، وأنا لا أحب السلاحف لأنها لا تهب الحياة معنى ولا تستطيع عناق من تحبّ بمسامها.

قبل عشر سنوات كان لي حبيب أحبني واحببته كثيراً قبل ان يودع جسده ويلفني به ويفترش سمرة الأرض وزرقة الكون. تركني أرفو ثقوب مهجتي لوحدي، وأنا ليس عندي ابرة ومغزل وشرانق وخيوط حرير.

قبل هذه الحرب كان رأسي محمولاً على عنق زرافة، وكان حبيبي يستغرق حبّاً وزمناً وهو يزرع شفتيه في اكتناز مساحاته المشدودة، وهذا المتدلي على كتفي الآن كجراب متسول، والمثقل بذل اللحظة.. العشرة.. العشرين.. الأربعين.. الستين.. السبعين.. الألفين. مرّ بغابات المشانق وشفاه

www.alkottob.com

المقاصل ومرارات الانكسارات والهزائم. تناسخ إعدامه رقاباً متهدلة وأخرى مشدودة، خرجت السنتها من مكامن همسها الخائف إلى لهيب الحرائق والحقائق.

سحبت من عبيّ جريدة اصفرّت من لهاث صدري وتقادم عرقي عليها. كانت مكسّرة ومهلهلة عند طيّاتها. فرشتها أمامي عشقاً معمداً بالدم. انغرست عناوينها السوداء كمناقير الغربان في عيني:

(السبت الأسود الدامي الذي نحر فيه الموظفون كالخراف عالهوية).

اقشعر خوفي... وماتت دغدغة الأصابع.

أعادتني الجريدة مع رأسي وحواسي إلى تحت:

ـ لماذا..؟

ـ إلى متى..؟

كانت علامات الاستفهام تشبه المناجل.. وبعدها صعب عليَّ استعادة طعم الدغدغة.

انها الحرب الأهلية.

وأنا انتصار تزوجت عدنان في عام الحرب، والأصابع المشتاقة لا تجتاز عتبات الذبح ومتاريس الخطف وبوابات الرحيل، لتسافر وحدها إلى الجسد المفخخ عناقه بالموت.

والعصافير يا انتصار معرضة دائماً للتسديد والجندلة في الدخان وحرقة الأشجار وتسيّب الكوى التي كانت تضم اعشاشها

www.alkottob.com

وتحميها. برودة الزناد افقدت الأصابع الباقية تلك الرعشة التي كانت تجتاحها عند هبوب كوامن الحنين، والذكريات والعناق.

في العلالي الانعتاق، وعلى الأرض دمار يا انتصار.

لا..

أضيع في متاهات الحرب ولا أستطيع ان اميز طريقي.

تعبت من الملاجيء وبرودة العضاضات..وشحّ المياه والرغيف.

في العلالي الانعتاق..

أحمل حزني على أهدابي إلى فوق، أكاد ان أمزّق حدقتي وغشاوة عيني. أبحث عن شيء ضائع لم أفقد الثقة بعد في العثور عليه! والسماء تبدو من الفجوة وسيل الحرائق، بعيدة.. بعيدة عن مدى الصراخ واستراحة النظر وحرارة التضرعات، وشظايا القذيفة انفلشت مع اسمنت السقف كالزّوبعة. شققت الحيطان بعدما قشرّت طلائها الماسي. كسّرت المزهريات والمرايا واللوحات وصور الذكريات وأقفاص العصافير وأصص الورود. مزّقت مفارش الكنبات وأغطية الأسرة.. بترت العناق. لم تترك فسحة لقدم تخطو أو زائر يجلس أو حلم يغفو دون ان يذبح.

يارب... يرتد صوتي إلى حشرجتي محملاً بالشظايا:

ضيقة المسافات في الحرب، محصورة الأمكنة، والجسد أوسع من الفراغ المخصص له... واكبر من وطن القبيلة والعشيرة والطائفة.

www.alkottob.com

مرة أخرى يفجعني تغبّش السماء البعيدة. أطوي الجريدة وأعيدها إلى عبيّ لأن اسم عدنان وصورته فيها. ابصق سائلاً أصفر يحرق معدتي الخاوية، وتنداح أمواج الحرب مثل الطوفان. تحترق الجهات الأربع، تخلّع صمامات أماني.

أتشبث بالعضاضة، وأصرّ على قرابتي للبحر.

كنت خائفة ولا أريد ان أموت بشكل مجاني وعشوائي. إجتزت ثلاثين حريقاً ومليون موت. خبأت دغدغة الفصول في ذاكرة الجسد وحناياه. وأجّلت مواسمي إلى الغد. دورتي الدموية من دورة الكون وسنون الحرب فاقت العشر والقذيفة خرقت الجدار والسقف وأخطأتني مع المصباح، والأرض لازالت تدور. . . وتدور يا انتصار، وجسدك الذي قطع ثلاثين حريقاً ومليون موت، اكتسب صلابة المعابد وقدسيتها وعبق بخورها وخلودها، وهو يحن للإسترخاء والشبع والارتواء والنوم ليستعيد أعياده وطعم الأصابع التي دغدغته.

بعد لحظات. . أو غداً. . أو في غد غد الغدّ، تخف حدّة القصف وينام الموت إلى حين، وتخرجين إلى البحر مع الناس الشاحبين، تعود اليك المدينة والبحر. . وتسبحين في رحابه، وعندما تتعبين تستلقين على بساط الرمال وكفك يعانق محارة ساقها موج الجنوب العاتي اليك. تغلفين أذنك بها وتستمعي إلى أساطير الصيادين ومزارعي التبغ والليمون. أساطير تؤكد لك نسبك إلى الشجرة والماء والعصفور والبحر والصواري.

www.alkottob.com

اخفض بصري إلى تحت، أحملق في خراب محارتي.

أهمس: لا بأس ان عاد صدري إلى انكساره المعهود.

أسحب الهاتف المكوّم على الأرض، انفخ الغبار عنه، أرفع السماعة إلى أذني.. السماعة توشوشني.. وأذني مسدودة بالصملاخ والانفجارات والأساطير. الأسلاك المنصوبة للتواصل بين الناس تتعطّل وتتشوّش في القصف.

أهتف إلى الله وأدير في القرص ثلاثين صفراً..

وأنتظر الجواب.

بيروت ١٩٨٧

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

عرف الـدجـاجة مقطّع، مضرّج الذبح . . وثقيل. رأسي يتضاءَل يوماً بعد يوم ويشحُّ .

تلك الليلة التموزية . . آه ما أشدّ حرارتها .

في تموز (تغلي المياه في الكوز). خلعت عرف الدجاجة وملابسي لأفتح فم الغول وأكسر اسنانه وأجعله مغارة للقمر.

نمت إلى جانب زوجي يوسف!

أنا عارية لن أحلم بالعري مرّة أخرى . . وأخاف .

ضوء القمـر مغناطيس يخطفني مع سهاد الساهرين إلى مملكة الحب الأسطورية .

نظرات القمر كانت أول من استباحت جسدي . . ويانجوم لا تطفيء الطفولة في وجهي .

كان على يوسف ان يسبق القمر ويشبع عينيه من عريي، ولكنه كان تعباً ونام .

www.alkottob.com

نبض عرف الدجاجة على حافة النافذة وناداني ، تجاهلته ، فالتصق بالحـديد . . . وتخثـر. كانت ملابسي التي عصـرت جسدي مكوّمة على حافة السرير. رائحتها هموم وعرق وبول. الغول بال على ذيله ورشني من مفرقي حتى قدمي . . وسبعني ! . لن أفلح باقتـلاع جلدي. رغبة جامحة تتآكلني لفتح فم الغول وتحطيم اسنانه ورمي أحشائه على حبال الأراجيح . وفمه مغلق بسبعة اقفال مفاتيحه ضائعة في قيامة الموت ومدّ الكوابيس.

ضحكت النافذة. يالعذوبة ضحكها. . كانت تزفر أنساماً باردة. تنـاهى إلى مسـامي المتفتّحـة صوت حفيف. تعلقت نظراتي بالنافذة. كان الليل جاثماً والصباح لازال بعيداً عن يقظة العصافير. (العصافير تنام في الليل لأنها تعبة من الطيران).

وجسدي العاري في تموز الحار طاقة مضنية مسبوعة ببول الغيلان، ترسل النداءات، وتخنقها حشرجة الاستغاثات ويرتد اليها الصدى. .

صوت الحفيف حط على جسدي كقطرة مطر، كان يمتزج بنقـلات عصفـور تهبط الدرج الخشبي الذي ينتهي إلى مشرقة صغيرة، تفضي إلى غرفة نوم ولديّ ثم إلى غرفتي . بيتنا عتيق مبني باللبن والأخشـاب يسند بيت الجيران، وبيت الجيران يسنده. ونافذتنا عالية، أعلى من السور التاريخي الذي تطل عليه. سور عظيم حمى المدينة من الغزاة، والسوق الشعبي الملاصق لبيتنا يفصل بيننا وبين السور، ويبدو من علو نافذتنا كالجب المخنوق وهو يعجّ بأصوات الباعة والناس من صياح الديك حتى نوم التعب.

www.alkottob.com

لا يوجـد في بيتنـا سوى هذه النافذة التي تظهر في عنق السور وظلام السوق كطيارة ورقيّة بيضاء.

عندما تزوجني يوسف وضعنا سريرنا تحت النافذة، فرؤية السمـاء والمدى المرصع بالضوء قبل النوم وفي اطلالة الصباح يضيء القلوب. دقت السـاعـة، انسكبت دقـاتهـا فيّ ثقيلة كالرصاص هذه الساعة المعلقّة على الحائط قبالة النافذة، هدّية أمي في عرسي. إطارها أصفر وعقرباها سوداوان يزحفان على صفحة وجه منقط بالشامات.

يوسف عنـده شامات، ولكنه حليق الشنب وجسده مدهون بدم الوطواط. لم تنتشر فيه غابات وأدغال. عميّ (ابو يوسف) عنده شنب.. وكان يحلق عانته وتحت ابطيه وينتف شعر صدره بالملقط، كان يحب ان يظهر أمام زوجته ام يوسف التي كانت تحب الرجال الموطوطين.. كأنه موطوط كإبنه يوسف.

ناداني حسام:

ـ ماما أنا عطشان.

أنا أيضاً كنت عطشى، والصغار مثل الكبار يعطشون في الليل والنهار ليعوضوا عما فقدوه من غزارة. عندما ناداني حسام، ارتد صوت الحفيف والنقلات باتجاه السطح. صررت جسدي بالشرشف وشربت من الصنبور، ثم ملأت كأساً سقيته لإبني.

ذهبت إلى المشرقه وتفحصت الدرج. لم تكن هناك رائحة عصافير أو ريشة تدّل على وجودها. لما عدت إلى النوم طقطق السرير. سألني يوسف عن الساعة، وقلت له الثانية عشرة ليلاً.

www.alkottob.com

عاد يوسف إلى النوم قبل ان يسمع جوابي، وأنا محرورة، وضوء القمر يغطي جسدي بشحوبه، وكان يحتكر لون الحنطة في أديمه ورحيق الزهر في صبغياته.

شرّعت النافذة، وكنت اشرعها دائماً لتدخل اليّ الفصول والعصافير وأسراب الحمام وعقود النجوم، ويركض النسيم في انحاء بيتنا وطيات جسدي وشعري. يؤرجحني مع المصابيح والستائر وأغطية السرير.. ويرقص العالم من حولي.

توَّرم عرف الدجاجة. تمدّد من الحر، وحبس أنفاس النافذة عني.

في منتصف تموز.. آه من الجمر المفروش على سريري.

هربت إلى نجمة كانت تسهر امام النافذة، سقطت في فم الغول قبل وصولي اليها. كان بوّدي ان أصير هي.. تعبت أنا. تأملت تضاريسي في ضوء القمر، كانت منتفخة.. خجلت من عريي وبكيت.

من حين لآخر يبكيني ضوء القمر، وكانت هذه ليلتي الأولى التي أنام فيها عارية. خزانتي ملأى بالملابس وأنا من أنصار الاحتشام. لم أتعرّ بقصد اغراء يوسف لممارسة الحب، أو بسبب الحرارة الشديدة. من عمر الحب في جسدي وأنا أرتدي الملابس المحشومة، ما خلعت ملابسي وعرف الدجاجة إلّا تحت تهديد الحلم وانذاره ووعيده.

فمنذ طفولتي والاحلام تسكنني.

www.alkottob.com

تزوجت يوسف ولبسته . . أماناً للستر. كل مرة أضع رأسي فيها على الوسادة بجانب رأسه أشاهد نفسي امشي في الشوارع المكتظة وأنا عارية، تخترقني النظرات كالسهام المسنونة وتنفذ إلى دمي وتفرغه من لون الحشمة الوردي.

أفيق مصدوغة وموجوعة من جراح النظرات وأنا اتحسس جسدي المخنوق بالملابس الثقيلة.

ـ العري في الحلم . . فضيحة في الواقع!

كانت تقول امي، تكشف عن صدرها وترفع يديها إلى السماء:

ـ يارب استر على جميع الولايا.

هذه الفضيحة المصيبة آتية من مكان غامض أجهل أسبابها. لم تعلمني الحذر، وكانت العواقب لا تأخذ حيزاً كبيراً من تفكيري. بحبوحة النسيان تخطفني إلى الطفولة التي يعزّ عليّ مبارحتها ، وأداعب الورود التي يصمخني أريجها ، وأسكن عينين يخصني بريقهما كمرآتي. وأغرد مع العصافير. اتذكر احلامي فجأة وأنقبض. أضمر من تعقيد الحساب وأنا أعدّ خطواتي وأنفاسي:

لولا هذا الحلم الذي سكن أنفاقي لقلت ان حياتي تسير في مجراها الطبيعي خالية من المنغصّات، وتعوّدت على ثقل عرف الدجاجة وذبحه. ونظراً لتكرر هذا الحلم أصبح نذير شؤم مؤكد لا طاقة لي على إحتماله.

العري ملحاح كالموت والولادة.

www.alkottob.com

لبست يوسف وكان كملابسي ضيقاً على جسدي . لم أفلح في مراوغة أحلامي .

أصبحت مغارة مسكونة بالخوف، ومع ذلك أنجبت ولدين جميلين، وفم الغول بقي نهماً يلتهم مساحاتي ويقوّض شاماتي المضيئة .

عاد الحفيف إلى الدرج الخشبي وشربه جسدي كالاسفنجة .

كان الحفيف واضحاً هذه المرّة، في الحقيقة ليس هناك مسافة تذكر بين أحلامي والواقع .

هل هي قطة الجيران؟

من المؤكد ان تكون هي، تسلقت كعادتها الطبلة التي تفصل سطح بيتنا عن سطح بيت الجيران، فالقطط كثيراً ما تفعل ذلك في الليل، عندما ينام الناس وتتأرق هي، تسرق جسدها إلى الشوارع والأزقة وتدخل البيوت من أسطحتها، تبحث عما يطفيء جذوتها .

الحمد لله انني لست قطة .

فتح باب مخدع نومنا . . وتلاحقت أنفاسي .

إنها ليست قطة الجيران . واستبعدت ايضاً ان يكون زائر الليل لصاً . اذ ليس في بيتنا أشياء ثمينة تغري اللصوص سوى النافذة التي يرقد تحتها جسدي . .

والنوافذ لا تسرق إلّا بعد ان يتقوّض المنزل الذي يحملها .

www.alkottob.com

تقـدّم طيف الزائر باتجاه النافذة، ولمّا صار في منتصف الغرفة سقط عليه ضوء القمر. كان يلبس منامة بيضاء، وقسماته في عمق وجهه تئن من مطاردة الضوء لها. وأنا في صغري كنت أزور جبلاً شاهقاً تستقر في صدره أشكال منحوتة بعمق وثبات تشبه آلهة اسطورية، كان الناس يقولون عنها انها قامات لرجال حقيقيين عاشوا في زمن مضى وحاولوا تحديّ شيخوخة الوديان وانـزلاق الانحـدارات، وفي أحـد الايام لموّا بعضهم بشجاعة وحاولوا الصعود إلى قمة الجبل متحدين اللصوص الذين كانوا قد سرقـوا قمته، وبينما كانوا يمشون صعوداً باغتهم اللصوص من مغائرهم السوداء بالرصاص. ومنذ ذلك التاريخ ظلوا محفورين في صدر الجبل كالاساطير لا يبارحوه أبداً.

هل يكون زائر الليل واحداً منهم ؟

كأنني أعرفه، ولشدّة يقيني وإلفتي لم أوقظ يوسف أو أقوم بأية محاولة لستر جسدي. وكان كلما خطا خطوة باتجاهي تتعمق المعرفة وتتوضح الإلفة.

ترى أين التقيته ياأنا؟

سلط عليّ بريق عينيه، واشتعل جسدي بالسنابل وأتعبني وجيبي.

نقّ عرف الدجاجة ونطّ من النافذة إلى رأسي.

حملتني اليقظة بأهوالها إلى النافذة، أدليت قدمي من بين قضبانها، وناديت:

- حرامي.. حرامي.

www.alkottob.com

باعة الخضار والفاكهة الذين جاؤوا إلى السوق مبكرين، رفعوا رؤوسهم واستقرت نظراتهم سهاماً على ساقي وكل أنحاء جسدي. ذكروني انني عارية، وهممت بالنزول لارتداء ملابسي. في هذا الاثناء نهض يوسف وادار مفتاح الضوء. شاهدني عارية أدير وجهي للنافذة وثدياي يبرزان من بين قضبانها.. كقمرين.

سحبني من شعري وصفعني:

ـ ياعاهرة.

وغاب فوراً لمطاردة الحرامي.

حقق الحلم انذاره ووعيده العتيق.

والله لم يستجب لابتهالات أمي البتة في الستر على الولايا.

في اليوم التالي أختفت النافذة من مكانها تماماً، وحلّ محلّها جدار كلسي بلون القبور.

صدر عن قلبي صوت تقصف يشبه تكسّر أجنحة عصافير الأقفاص.

دمشق ١٩٨٦

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

السماء، هذا الامتداد الداكن لليل بارد، بدت مشروخة. كان الشرخ في منتصفها تماماً حيث ظهر واضحاً وعميقاً كالجرح.. تسيل منه ظلال قانية، وعلى طرفيه تخثّر سواد.

الطريق إلى حيّ الصبّار كان يمر عبر القبور الدارسة وأشجار الصبّار الهرمة بدا موحشاً وكئيباً، وهذا ما حدا بأبي ياسين العائد إلى بيته ان يشهق نفساً عميقا ويكلم نفسه بصوت جهوري ليؤنس وحشة خطواته ويطرد عنه الأرواح الشريرة التي يمكن ان تعترض طريقه. بعد استغفار ربّه، تقاذفت شفاهه الملامات على الأموات لأنهم يخلدون إلى الصمت المطبق ولا يوشوشون العابرين المتعبين. لكنه ما لبث ان ندم وقرّع نفسه:

ـ معتوه.. الأرواح تخلد إلى الراحة مع أصحابها لأنها تعبة ودون رغبات.

ـ لماذا؟ لابدّ للأرواح ان تحمل رغباتها التي عذّبتها وأزهقتها إلى أبد الآبدين.

ـ هراء.. الجوع مرتبط بالجسد، والحب أيضاً الجسد عموده الفقري، والأحلام تدور في فلك الرغبات، ومن يقول غير هذا ما هو سوى انسان مصاب بالعنّة.. والقصور.

www.alkottob.com

أشجار الصبّار التي كانت تشكل سوراً حول المقبرة ظهرت لأبي ياسين كمخلوقات اسطورية كلها رؤوس وليس لها اطراف، تشوّش واضطرب وخاف. ثم نادى:

ـ انا ابن جلا وطلّاع الثنايا..

وقبل ان ينادي الشطر الثاني من البيت يصطدم بشاهدة قبر ويقع على الأرض وينسى كلياً كل ما حفظه من شعر. يستغفر ربه من جديد ويحمده ويشكره لأنه كان رحيماً به وجنّبه السقوط في قبر مفتوح.

ـ لو كان هناك مصابيح كهربائية أو نجوم لجنَّبت سكان حي الصبّار العائدين إلى بيوتهم في (دغْشة الدني) الوحشة والخوف والوساوس والسقوط في القبور المفتوحة. ولكن كيف؟ والنور يقلق راحة النائمين، والحرص على راحة النائمين واجب انساني وضرورة اجتماعية وقومية وشعرية!!

بددت سكون الطريق صرخة ممزقة أنست أبي ياسين رضوض وقعته:

ـ ياهو.. و.. و.. ه.

ثم تلت الصرخة استغاثة لجوجة:

ـ انقذوني أنا حيّ.

جفل أبو ياسين وتسمرّ في مكانه.. الرعب لا يفسح مجالاً للتفكير والمناقشة.

تكررت الاستغاثات وكانت مثل البلطات تقطع أعصاب أبي ياسين وتفرمه وتزيد من ارتجاجه.

www.alkottob.com

ـ تشجع يارجل، الخوف لا يليق بالرجال. . لو رآك أحد على هذه الحالة المزرية، لأقسم جازماً بأنك حريمة لا حول لها ولا قوّة.

بالتـدريج عاد أبـو ياسين إلى وعيه واستدار عدة دورات ليحدّد المكان الذي سمع منه الاستغاثة:

ـ لعنة الله على الظلام الذي يغرّب الانسان عن عينيه وقلبه وطريقه.

تلمس أبو ياسين الأرض بقدميه، وأشعل عود ثقاب وهو يتقدم ببطىء نحو الجهة التي سمع منها الاستغاثة، قدّر انها قريبة جداً من موضعه. بوصوله إلى أول قبر اعترته دهشة شديدة. كان هذا القبر هو قبر صديقه عبد الله الذي وافته المنية مساء أمس علي اثر إصابته بسكتة قلبية.

نام عبد الله ولم يفق من نومه أبداً.

ـ مسكين عبد الله.

أيقن ابو ياسين مدى قسوة العقاب الالهي على الأموات الجاحدين بنعمة الحياة، وجزم قاطعاً بأن انكر وانكير يحاسبان عبد الله على ما اقترفه من ذنوب وأثام.

ـ بسم الله الرحمن الرحيم.

ولكن عبد الله كان انساناً بائساً مثلك يابا ياسين! بربك قل لي ماذا اقترفت من آثام وذنوب حتى تجرّم عبد الله؟؟ أجل. . أجل. كان عبد الله رحمه الله في منتهى الوداعة اذا داس على نملة لا يؤذيها. يكدح ويجوع ويتألم بصمت. وكنت تؤنبه على

www.alkottob.com

صمته لأنك تعتبره اذعاناً وحياداً سلبياً تجاه قسوة الناس والظروف. وكنت تقول له راجياً: اصرخ.. ابك ياعبد الله، ما أنت إلّا انسان من لحم ودم ومشاعر واحلام، ومحروم من أشياء كثيرة لك الحق في امتلاكها. وتحذره: اذا بقيت على هذه الحال ياعبد الله فسوف يقتلك الغم كما قتل آلاف التعساء من قبلك، والموت بسرطان الحنجرة أجمل وأوسع ألف مرة من الموت بداء السكتة، لأنه يترك لك فسحة للأنين والتعبير عن ألمك. الا تعلم ايها الصديق ان صراخ الموت مشروع كالولادة؟

وكان عبد الله يجيبك بسخرية رجل فقير وموجوع: إنك تهذي يارجل، لقد هدّت التنهدات قلبك وتقطعت حبالك الصوتية من الصراخ وأكلت الدموع عينيك.. أخبرني ماذا كانت النتيجة؟ ما هي محصلات جعجعتك؟

ربما كان عبد الله على حق. أجل، لقد كان رجلاً حقيقياً حتى في الملمات والأحزان الكبيرة التي يطحن ثقلها الجبال ويقزّم العمالقة. عندما ماتت زوجته وابنه الصغير بمرض التيفوس، كان يبتسم للمعزّين وهو يلجم دموعه كما يلجم أنينه.

يفقد الحزن معناه وأصالته بالتهويل واللعلعة.

مرة أخرى أشعل ابو ياسين عود ثقاب وهو يركع على قبر عبد الله. وضع أذنه فوق تراب القبر الندي، لكنه لم يسمع غير دبيب الصمت:

ـ لابد إنك كنت تحلم يارجل! في ليل مشروخ وبارد يصعب التفريق بين اليقظة والحلم. لابد ان أنكر وانكير قد انتهيا

www.alkottob.com

من حساب عبد الله!! هل يمكن للموتى ان يستغيثوا كالأحياء؟ وهل يمكن للذي لم ينبس في حياته ان يصرخ في موته؟ لا انه ليس حلم ولا هلوسة لقد سمعت يابا ياسين صوت عبد الله بشحمه ولحمه. أيكون عبد الله قد دفن حيّاً نتيجة خطأ ارتكبه أبو محمود الحلّاق الذي فحصه وقال، إنا لله وإنا اليه راجعون؟

(في حي الصبّار، الميّت ليس بحاجة دائماً إلى شهادة طبيب لتشخيص موته وتأكيده.. شهادة حلاق الحي موثوق بها أيضاً.. شهادة الطبيب بخمس وعشرين ليرة، وشهادة حلاق الحي بكيلو حلاوة يوّزع على روح الميت).

ازداد أبو ياسين اصراراً على سماع صوت عبد الله. استلقى على تراب القبر ونفخ فيه بكل قوّته:

ـ عبد الله ياصديقي الوفي واللدود أنا ابو ياسين ردّ عليّ.

شق صوت أبو ياسين سكون الموت مثل مزامير الريح وهو يكرر رجاءَه إلى ان بحّ. وعبد الله عازفاً عن الجواب.

دمشق ١٩٨٣

www.alkottob.com

www.alkottob.com

كانت الأصابع حركة وانتظار وتوتر. .

في ذلك الوقت من زمن الواقع العلمي الغرائبي، وفي بيت كان وطناً. صمتت الايدي وأعلنت الأصابع اقلاعها عن الاستجابات الزمنية العابثة بنقلات عزفها وحنينها. .

همدت إلى حين مطوية على بعضها بانكسار. لذلك كانت آخر ورقة قطفتها أصابع مستعجلة من الروزنامة تشير إلى شهر أيار من عام ١٩٧٥. ومنذ ذلك الحين استقرّت الروزنامة غافية على ورقة نيسان من العام نفسه رغم ما تكدّس فوقها من عتق وغبار وازيز ونزيز. أرقامها لازالت واضحة تماماً. . داكنة الحبر.

قالت غابات الشفاه الفاغرة عشقاً وموتاً وخوفاً، والكامنة في احشاء الروزنامة:

ـ عاشت التكنولوجيا التي ذوّبتنا صراخاً مجفولاً في زمن خارق لكل التصورات والأعراف.

وكانت الروزنامة تستعجل المرأة الشاهدة التي كانت تدير لها قفاها، كي تبحث جادة عن نظّاراتها.

www.alkottob.com

والمرأة كانت تجلس على الديوان المسنودة تداعياته إلى الحائط، وتدير ظهرها لكل روزنامات العالم. فهذه الروزنامة المعلقة كالمشنقة فوق رأسها تتدلى منها قامات لناس وأشجار وبيوت لا حصر لها. وهي مثل غيرها من روزنامات هذا الزمن الكالح، المزموم بالحقد والصرامة. خيط نحيل، بل خيوط متسربلة بالدم، تصل ما بين ذاكرتها وتلك التواريخ المحنطة السوداء التي يؤرخون بها الصرخات والمجاعات والحروب واحتضار الماء في الأجساد التي كانت أدغال جنون القمر واسرار البحر اللافحة. والمرأة لا تنظر البتة إلى الروزنامة بعدما انطفأت خوابي عينيها من التحديق وارتخت جفونها من هلع الفتح والضم:

لا ضرورة إلى الروزنامات في توقف الضحك والمواعيد وغياب الأحلام. في نضوب سيولة المهج والضوء. يُبطل الزمن وتغادرنا الأمكنة.

من شدة الارتعاش والبرد فرشت المرأة شالها الأسود على كتفيها. ضمته إلى عبّها الذي تقطعت ازراره وتركت مكانها على ثوبها ثقوباً، وعلى نحرها وشماً يبدأ من نحول الصرخة إلى ضمور الخصر.

بجانب المرأة كانت تستلقي سلّة صغيرة مجدولة من سيقان الحنطة التي صُبغت في يوم من الأيام بألوان زاهية متعددة الأفراح. كان في السلّة مكبّات خيطان وأزرار وبقايا دانتيلا وشرائط ومطاط ومقص ومَدْبسة مشكوكة بالدبابيس والابر.

www.alkottob.com

أخـذت المـرأة يدهـا إلى المـدبسة، تحسستها بأناملها وسحبت إبرة من ابرها المغروسة في حشوتها، بسهولة ويسر ميّزت أناملها الابرة عن الدبوس:

للدبّوس طارة صغيرة في نهايته وليس للابرة مثل هذه الطارة.

كانت المـرأة بحـاجة إلى نظّارتها، لذلك بحثت أول ما بحثت عنهـا في أعلى مفرقها، ولمّا لم تجدها بحثت عنها في جيوبهـا والسلّة. وبعـدهـا لابت عليهـا في كل أنحاء جسدها والبيت، وكـانت تتعثر بأذيالها المهترئة وخّفها الذي بات واسعاً على قدميها وينشلح منهما عدة مرات في اليوم وهي تلوب الأرجاء بحثاً عن مفقوداتها. عندما عادت إلى قعدتها كانت بلا نظّارة، وكانت أيضاً تُبعد لهاثها الذي مجّته لأهوال حريقة على فمها.

قهقة الرقم (٧) الذي يلي الرقم (٩) ويسبق رقم (٥) في عام (١٩٧٥)، لأن لهاث المرأة هذه المرة كان من الشدّة والحدّة واالاستعجال إلى درجة انه طيّر الغبار عن حواشيه.

قالت المرأة:

ـ سأضم الخيط بخرم الابرة دون نظارات. بحكم الترقيع والرتق آن لي ان أعرف أين تقع خروم الابر.

وبسرعة قرّبت الابرة من عينيها قبل ان تنسى موقع الخرم في ذاكرتها.

www.alkottob.com

كانت عينيها مكدّستين بالضباب. والابرة من الدقة والصغر بحيث لا تظهر البتة لعينيها، وايضاً كانت أصابعها ترتعش بفوضى.

خطر لها الضحك، وضحكت بوهن شديد.

ربما كان هذا الضحك الذي عنّ على بالها، مارسته كطقس قديم من الطقوس التي ولّت، ليساعدها على وضوح الرؤية، ويبدد الغيوم المكدّسة فيما حولها وعينيها:

حتى ذاك الذي يبحث عن إبرة في كومة بيادر سوف يجدها حتماً اذا طوّل باله وفرز التبن عن الحنظة وذراه قشة قشة.. والحنطة عدّها حبة حبة.

الضحك ما حقق جلوتها المرجوة، ومع ذلك استمرت في ضحكة مشبوبة الأنّات. فهي لم تعد تتفاءل أو تتشاءم من الأحداث التي تدور خارجها، أو تلك التي تتطاحن فيها وتندلق من حواسها.

في الماضي كانت تتشاءم كثيراً وتتفاءل اكثر.

كانت تتشاءم من طنين يداهم أذنها اليمنى ويسّد قناة المناجاة إليها، ومن رفة هدب عينها اليمنى، ومن يومي الاربعاء والجمعة، ونعيق الغراب والبومة، ونباح كلب بالمقلوب. وكان تشاؤمها يصل إلى أبعد حدوده في إنكسار النظّارات والمرايا.

وبالمقابل كانت هناك أشياء جمّة تدعوها للتفاؤل، مثل طنين اذنها اليسرى، ورفة هدب عينها اليسرى، وأيام السبت

www.alkottob.com

والأحـد والاثنين والثـلاثاء والخميس، ورقم (٥) المدّور الذي يشبه الكعكة. وتصل فرحتها وبشائرها إلى قممها عندما تخرمش القطة البسط والتكايا ووجوه الكنبات وتلوي قائمتيها الاماميتين إلى خلف اذنها بحركات دائرية مثيرة للأنس. وكانت تفسّر سلوك القطة هذا بمجيء ضيوف أعزاء جداً من سفر طويل.

تذكرت المرأة كل ذلك وهي تبحث عن خرم الابرة.

. . وحدث في شهر نيسان الذي ينام تحت شهر آذار في اوراق الروزنامة، ان وقعت نظّارتها عن عينيها إلى الأرض وتناثرت. وكان هذا نذير شؤم توجّست من ورائه شراً مستطيراً، وفيما بعد عزت كل الذي حدث للوطن والناس من خراب وموت واندثار، إلى عبثها واستهتارها بنظّارتها.

وفي عام (١٩٨٢) المحفـور في أخـاديد القلب واثـلام الـوجـه، إنكسـرت مرآتها، بينما كانت تقف قرب النافذة تزيل شعرات حاجبيها الطائشة في نور الشمس.

غاص الملقط الحاد في تهدّل بطانة العينين، صرخت من الـوجع، وسقطت المرآة من يدها إلى الأرض وانطحنت. ومن يومها كرهت الأيام كلها، والرقم (٥) ما عاد يشبه الكعكة. صار جمجمة. . والمدينة الرياضية[١] صارت مقبرة الأنفاس الراكضة إلى الحرية.

(١) الاجتياح الاسرائيلي لبيروت ـ ٥ حزيران عام ١٩٨٢ ـ بدأ بقصف المدينة الرياضية.

www.alkottob.com

هذا ما كان: انكسار النظّارات والمرايا، مقدمة لفجائع قصوى لا نهاية لها.

والآن، وبعدما أصبحت بلا نظّارات.. بلا مرايا، أمست أثوابها المتبقية بلا ازرار، وكانت هناك حاجة ماسة تفرضها الحرب إلى ثوب محكم الاغلاق عند الصدر، لأن جلّ ما تخشاه المرأة، ان تموت مكشوفة الأنين ومهتوكة. جراحها ورضوضها صارت جيوب جسدها، مكدّسة بحنين وذهول لا ينتهي. ومحاولتها المستميتة للعثور على خرم الابرة كانت تستمدها من عري نحرها وتسيّب أبوابها وشبابيكها.

ضمّ الخيط، ربما كان محاولة لضم ما تبدد من شمل وأشواق وسنين وازرار مقطوعة وأغمار موجوعة. هذا العمل الفادح الصعوبة هو ورقتها الأخيرة ـ مع علمها المسبق ووعيها الكامل انه من المحال العثور على خرم الابرة دون نظّارة لمثل عينيها اللتين شاهدتا... يالهي كم من الأهوال! ـ وانها ترمي ورقتها في مهب الوطن، ولكنها كانت تأمل ولو ضئيلاً ان تصطدم هذه الورقة بفرع أخضر لشجرة عملاقة لم تصب قامتها بالحروق. ولكن ما بال هذا الضباب المكدّس في عينيها لا يتزحزح أو ينقشع مهما اخترعت له من ذكريات وأحلام وأوهام؟ انه يلتصق بها التصاق الجنين برحم امه. يأبى المغادرة كأنه حقل مغلف بالزجاج، وعمقه المطل على مجرى الدمع كانت تحسّه مغبّشاً بقطرات كتلك التي تنبعث من الأماكن الدافئة وتدمع على سطح الجليد والبرد. يقينها الذي لا يخطيء الدمعة ورائحة الهطول من وجود

www.alkottob.com

هذه القطرات الكامنة وعدم نضوبها تماماً. دفعها للعدول عن عبث اكتشاف موقع خرم الابرة، وشغلت نفسها بمدّ يدها إلى السلّة والتقاط الازرار المناسبة لعبّها المقطوع الازرار.

وطالما ان كل شيء ينوس في هذا العالم وتتساوى الوانه. استعاضت عن بصرها بأصابعها الخشنة وكانت لا تزال تختزن نكهة اللمس والحكايا. انتقت ازراراً حمراء وزرقاء وصفراء وخضراء وبنفسجية. وكانت كلها تبدو لرؤوس نهاياتها بلون واحد، فمن المستحيل تمييز الألوان بالعتمة. كما لا يمكن بأي حال من الأحوال سماع أصواتها.

كمشت الازرار المنتقاة بيدها واحكمت اغلاق قبضتها عليها.

من تعب التحديق أصابتها غفوة، رأت خلالها اثوابها الماضية تنهض من جسدها، وكل ثوب ينتقي ازراره التي كانت له يوماً.

لمّا عادت إلى صحوها كانت الازرار في قبضتها تتفصد بالعرق الغزير.

أخذت المرأة جسدها إلى النافذة التي شلع درفيتها الغزو وحروب الطوائف. تطاير صوتها ببّحات متواصلة النداء على رنا ابنة الجيران يستعجل قدومها لأمر هام ليس بالامكان تأجيله. سمعت رنا نداء البحات وكرجت مستعجلة كساقية، طلّت على بيت المرأة وهي تحمل لعبتها العارية من ساقيها. سمعت المرأة

www.alkottob.com

نشيج لعبة رنا من خفيف دمعها المقترن بحفيف قدمي رنا الحافتين، وسرت في اوصالها قشعريرات برد. ربخت رنا إلى جانبها وكانت تنشق سيل انفها المزكوم على التوالي. وفي الحال انفردت كفّ المرأة كمحارة وراحت رنا تنسل كنوزه وتعدّها بناءً على طلب المرأة.

عدّت رنا الازرار وكانت ثلاثة عشر زراً!!

فرشت المرأة ثوبها العتيق اليتيم من الازرار على حرجها. وبيد ثابتة مسكت المقصّ واقتطعت منه منديلاً صغيراً لرنا كي تمخّط به أنفها، وما تبقى من الثوب فصلّته ثوباً على قدْ رنا، والقصاصات الصغيرة الزائدة فصلّتها اثواباً للعبة رنا. ثم طلبت من رنا ان تضم لها الخيط بالابرة وحذرتها من ان تطيل الخيط حتى لا ينعقد ويتعقد اثناء الخياطة.

ضمّت رنا الابرة وقصرت خيطها. عقدت المرأة الخيط عند نهايته وعندما شكّت أول غرزة في ثوب رنا الجديد، تسربت إلى مهجتها قطرات ماء. غفت رنا على ركبتها، وهي تخيط لها الثوب وتزينه بالدانتيلا والشرائط والأزرار. تدفقت من حناياها المعتقة بالامومة ترانيم عتيقة:

(نيّمتك في المرجوحة خفت عليك من الشوحة
نيّمتك في العلية خفت عليك من الحيّة)

www.alkottob.com

كان صوتها يدمع ويشتي على رأس رنا الصغير الغافي على أوتاره المذبوحة حكايا لأطفال شلعوا بوحشية عن أسرتهم وأعمارهم. وفي اللحظة فاض صوت المرأة بغزارة البحّات، رفعت رنا رأسها عن ركبتها، رأت ثوبها الجديد وصارت تنادي على العيد وهي تنط على الديوان كالكرة.
تطاير غبار ولفحات هواء من نطّها.
انفرطت اوراق الروزنامة وسافرت من النافذة إلى التاريخ.

دمشق ١٩٨٧

www.alkottob.com

www.alkottob.com

على مدى عشر سنوات أو اكثر كان «زغران» يمشي وراء القطيع ويحميه من الذئاب والواوية والحرامية، وخلال هذه المدّة التي تولّى فيها زغران الحراسة، لم ينقص القطيع ولا رأساً.

في الحر والبرد، كان زغران بخاصرتيه المجوّفتين وفمه الواسع وشدقيه المتهدلين من قسوة العظام العارية الآدام والنباح، حارساً شديد البأس والوفاء والأمانة لصاحب القطيع وقطيعه وأهل بيته.

هذه المهمة القصوى التي أوكلت به، جعلته دائم القلق والتوتر.

يشنِّف اذنيه وحواسه الأخرى ليتفادى الأخطار المباغتة التي من شأنها المساس باصحابه ـ قبل وقوعها. لذلك كان بالكاد يغمض له جفن، كما انه كان لا يتمادى باحلامه بعيداً عن مؤخرة القطيع وعتبة الدار والعظمة العارية كالريح الملقاة اليه.. إلى اخرى مكتنزة باللحم والدهن. كما كان يطمس بقهر رائحة «زغرانة» التي تهف اليه من مسافات بعيدة وتدعوه بالحاح اليها.

www.alkottob.com

كأنـه ادرك بفطرته الكلبيّة المجبولة على نكران الذات، والوفاء والاخلاص للصاحب: ان قدره ان يكون زغران حارس القطيع ولا شيء غيره. وعندما كان القطيع يعود إلى حظيرته سالماً في آخر النهار، كان زغران يستلقي على جنبه أمام عتبة البيت مطمئن البـال، يمـدّ قوائمـه المتعبـة، يغمض عينيه نصف اغمـاضـة ويستـرخي قليلاً قبـل قدوم الليل الذي يعني له، بداية الشوط الثاني من الحراسة.

كان زغران معنياً بسلامة عالمه وناسه الذين قصّوا له ذنبه المعـوج بالمقص لأنـه لا يتقولب إلى الاستقامة التي يطمحون اليهـا.. ولو وضعوه في القالب أربعين سنة. يومها كان زغران جرواً. نبح نباحاً مؤلماً ونزف دماءً كثيرة من عصّه.

ومـع الأيام تأقلم مع وضعه الجديد، حتى انه نسي ذنبه وشكله والآلام التي سببها اجتزازه منه، وازداد تعلّقاً بصاحبه وقطعانه.

بقـدوم الصيف يكبـر ضوء القمر، وتكثر السهريّات على السـطيحات.. تعـجّ سطيحـة صاحبـه بالاصـدقاء الذين كانوا يتحدثون بأصوات عالية وكلمات مبهمة لا يفهم زغران معظمها وهو مستلقي أمام البيت، رغم ذلك كان يشنّف حاسة شمّه وأذنيه كي لا تفوته ولا كلمة من تلك الأحاديث.

www.alkottob.com

يقاوم اغراء الرقاد ليسمع اسمه ينطلق من فم صاحبه وهو يكيل له المديح، ويقول عنه أمام الجميع، ان أصل زغران كان ذئباً، وانه أصبح زغران منذ أول عظمة رماها له وتمزّق شدقاه وتدمى فمه من قسوتها.

لم يكن لزغران ذنب ليهلل به طرباً على مديح صاحبه له..

وفي نفس اللحظة كان زغران يغتم وتقطر نفسه حسرة من أصحاب القطعان الذين حوّلوا الذئاب إلى كلاب! وليتهم اقتصروا على هذا، فصاحب القطيع وأهله وجيرانه وكل سكان القرية، اذا أرادوا ان يوجهوا الشتائم والسباب والتحقير لشخص دون غدر بهم يقولون له: كلب ابن كلب؟؟

يحتار زغران: كيف يتهمونه بالغدر وهو على هذه الدرجة من الوفاء؟

غريب أمر هؤلاء البشر الذين لا يخجلون من لصق صفاتهم بالكلاب!!

بعد عشر سنوات كبر زغران وهرم. أقعدته الشيخوخة وقاعسته عن الحراسة والنباح والسهر. يومان فقط من التقاعد القسري، خبت فيهما عيناه وكلّ جسده، ونباحه إلى حشرجة وأنين.

ليس من حق كلاب الحراسة التقاعد والتقاعس يازغران. حتى وان كانوا أفنوا أعمارهم وزهوتها في الحراسة.

www.alkottob.com

حاول زغـران ان ينسـل من شيخـوختـه ومـرضه ويلحق بالقطيع. رأى صاحبه مقبلاً عليه وهو يدكّ بارودته بالخرطوش. برك زغران في مكانه مستسلماً لقدره الزغراني. قرّب صاحبه فوّهة البارودة السوداء من صدغـه ثم ضغط على الزناد.

دمشق ١٩٨٧

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

كانت (راكعة) في ذلك الوقت من اعوامها الرماد تتربّع على قمة الجوع التي هزلت خواصرها من الشوكيات المسنونة الأريج والأوراق. مرّ بها رجل وكان يحمل كيساً من البسكويت وصرّة فيها حلاوة. عن عمد لوّح لراكعة بيديه المغلولتين بالسكر. اعتبرت راكعة تصرّفه استعراضياً يفتقر إلى الذوق واللياقة لانه ينطوي على تحدّ سافر لمشاعرها.

حملت نسيمات الخريف إلى راكعة رائحة البسكويت والحلاوة. دخلت اليها واحتلتها دون اذن منها. لأنها تتنفس مثل كل الناس الأحياء، كان لابدّ ان تستنشق ما يُتحفنا به الهواء من روائح. وراكعة قد تعوّدت طويلاً ان تكتفي بهذه النعمة الإلهية رغم ما تنطوي عليه من عذاب وتعميق لأخاديد الحرمان، ولا تتخطاها إلى اللمس والتذوّق. ومن قبل كانت قد رأت مراراً هذا الرجل المحمّل بالبسكويت والحلاوة. على مدى أعوام مضت كان يعبرها ويتخطاها بشموخ واستعراض الناس الشبعانين، وهي أيضاً لا تعيره التفاتاً أو مودة.. أو حتى يفتر ثغرها عن رغبة. لكن لم يسبق له ان تباطأ في تهاديه أمام قمتّها الشوكية ولوّح لها بكنوزه. ولو أنه مضى إلى سبيله كما كان دأبه في السابق، لما

www.alkottob.com

تبلبلت إلى هذه الدرجة وخارت قواها. كثيرون الرجال الذين كانوا يمروّن ويمروّن أمامها وهم يحملون البسكويت والحلاوة. وما استحلب ريقها أو نظرها أحداً منهم. كانت تتجاهلهم عن قصد، ولا تلتفت اليهم بتاتاً أو تصوّب باتجاههم مباشرة. حتى لا يقولوا عن راكعة عينها فجعانة لا تكسرها هبات الله وسخاؤه الواسع الذي خصّ به عباده الصالحين. ولكن عينها الواسعة كانت تخذلها دائماً. تختلس نظرات مواربة إلى ايديهم واقفيتهم المستديرة وهي تغيب عن منحدرات قمتّها.

منذ الصغر تعلّمت راكعة «ليس للكفن جيوب». لذلك عمدت في حياتها ان تختار ملابسها بلا جيوب. كما انها ما أقتنت ابداً جزداناً. دائماً تدس في عبّها ممتلكاتها وما تيّسر لها الحصول عليه من دريهمات قليلة لقاء تعبها.. وكانت بالكاد تسدّ حاجات الجسد المتنامية إلى الرمق والكساء.

لأن راكعة تستاء من اسمها بقدر ما تحب الصلاة، خفت ملامتها بالتدريج على أهلها الذين سموّها به (كما روى لها أبوها فيما بعد عن سبب تسميتها راكعة، فهو قد أطلقه عليها لأنها كانت راكعة في بطن أمها، وعندما خرجت منه إلى الدنيا نزلت من ركبتيها وسقطت على الأرض وهي في وضعية الراكع الذي يتأهب للسجود).

في ذلك الوقت الذي مرّ بها رجل البسكويت والحلاوة، كانت مشكوكة على قمة جوعها كرمح غرسه محارب عتيق مضى ليشرب من نبع.. ولكنه لم يؤوب إلى رمحه أبداً.

www.alkottob.com

كان الدقيق والنبيذ قد نفذا من خوابيها.

لذلك اتسعت عيناها اتساعاً رهيباً، وكان هذا الاتساع على حساب تقاطيعها الأخرى:

واذا كان الرجل قد توقف في حذاء قمتها المبرية والجافة من نفاذ عصير ومؤونة الخوابي، فلأنه ارتاب بهذا المخلوق النحيل الواسع العينين الذي لا يرمش فمه. كأنه اكتشفه لأول مرة، مع انه صادفه مراراً من قبل، وحاول ان يستحلب نظراته مرات من بعيد لبعيد.

دون ان تدري راكعة نوايا عابر السبيل تجاهها. حلّ هذا صرّة الحلاوة، وناولها قطعة يقطر العسل والدبق من حواشيها.

نقطت بضع قطرات عسل على الأرض.

تجمدت راكعة من الغرابة والغربة إلى درجة انها نسيت طقوس صلواتها القديمة!

ليس من أجل العسل المهدور حصل لها ما حصل.

كان هناك سؤال اخترقها كالسهم لم تجد له جواباً فورياً مقنعاً:

ـ لماذا؟

بقيت الحلاوة معلّقة بيد الرجل، وراكعة كانت تبحث عن جواب (فقط بينها وبين نفسها كانت تذوب جوعاً إلى الحلاوة التي كانت تحبّها كثيراً، ولكن معاذ الله ان تهمس بهذا أو تعلن عنه حتى للجدران أو الريح).

www.alkottob.com

أجهدت راكعة نفسها كثيراً في حلّ غموض السؤال:

لماذا قدم لها الرجل حلاوة؟

وكانت يد الرجل مازالت ممدودة اليها.. لم تتعب أو تضجر من الانتظار.

همست راكعة لنفسها بجواب مقنع:

طالما انها تحب الحلاوة إلى درجة الانفطار، فمن الغباء المطلق والنفاق الرعديد ان تشيح بوجهها عنها وتتظاهر بالغثيان ولمعان الأسنان، لأن الله سيغضب منها وعليها، اذا حرمت نفسها وتعففت عن أكل الحلاوة.

ارتعبت عندما تبادر إلى ذهنها هذا الاقناع. وتمنت ان يتفتت كبدها من اليباس قبل ان تتنازل إلى غريزتها.

ولأن الجوع كافر، بسطت راكعة يدها إلى قطعة الحلاوة الممدودة اليها.

قبل ان تلامسها أصابعها، كانت قطعة الحلاوة قد تحوّلت إلى قطعة سوداء تعج بالذباب.

أعادت راكعة يدها ووضعتها على ركبتها.

كانت يدها واجمة كثيراً، والرجل لم يخطر بباله ان يستبدل قطعة الحلاوة باخرى، يقطفها من رحيقه إلى لعابها مباشرة.

دمشق ١٩٨٧

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

- ١ -

قال لي حبيبي وأنا أضع رأسي الغزير على كتفه:

ـ لو كنت أملك مركبة فضائية لخطفتك كما تختطف الشوحة صغار العصافير. وطرت بك إلى أحلامك. ولكن صدقيني ياحبيبتي، الأرض جميلة أيضاً بما فيها من عناق وفراق وتأزم ولهفة وتراب وزهر وصبّار. اختراعنا للأحلام التي نضحك بها على أنفسنا ونُتعسها، يعذبّنا.. كوني معي للحظات مبتورة عن كل شيء سواي، وأخبريني بعدها عن شعورك.. يقيناً ستغيرين رأيك بعدها.

ـ كنت صغيراً، قالت لي ابنة الجيران «حوح» وكانت الدنيا برد، عانقتها وأدفأتها وأحببتها كما يحب الكبار، وفرحت فرحاً طاغياً.

ـ بعد نجاحي بالثانوية، قال لي ابي انني قد كبرت فعلاً، وعلي أن أعيل نفسي ولا أعتمدُ بعد اليوم عليه. لم يصدمني قراره. في اليوم التالي توّرمت قدماي إلى أن وجَدت عملاً، وكبرت بين ليلة وضحاها عشرات الأعوام دفعة واحدة.

www.alkottob.com

ـ جبت كل البحار، وقطعت القارات، غزوت العالم بدوياً بفرسي وترسي ورمحي واحتقاري الدفين لعقدة التفوّق الآري. فضضت نساءَه غرباً وشرقاً.

الظمأ.. الاضطهاد.. التعويض. هل شعرت بكل هذا ياحبيبتي؟ يالغبائي أنت وطني. شفتاك المبيضّتان من حرقة الملح تقولان إنك ما عرفت الطراوة والأمان.

تخترق رصاصة صامتة صدر حبيبي، تجند له مع حبّه وذكرياته. يهوى مع كتفيه، وترتخي يده المحيطة بخصري. أتَيتم وأفقد القدرة على العويل. أستريح على صدره، أنفتح جراحاً. يتدفق من بطن الليل شفق غزير. تظهر في السماء نجوماً مذبوحة، تلتحم مع الشفق بتراتيل طويلة، تبدأ بصوت احادي سحيق مسحوب من أعماق البشرية، بأول صرخة رعب مزقت حنجرة هابيل. تتدرج الأصوات ثنائية.. ثلاثية.. رباعية.. وتصبح كورالاً لملايين المنشدين.

أحتج بلا ضجيج. أصدّع أركان ذاكرتي، تتدفق منها الجماجم والهياكل العظمية. أنهار وأنا أنادي بلا حنجرة.

ـ حبيبي..

تصمت النجوم احتراماً لأحزاني.

تتلاشى نداءاتي في أعماقي دبقاً يشدّني إلى الأرض.

www.alkottob.com

- ٢ -

أقلعت عن الحب والأحلام.

أرسم مسوخاً يمشون على نوافيخهم، يتكلمون من أعضائهم التناسلية.

أحاول ان اتعوّد عليهم بلا حب.. أو فجيعة.

يتكيّس جلدي بدرنات كبيرة من الشحم، يتوّرم عنقي، يجفّ فمي ويتمرمر لعابه، تنخر أسناني وتصفّر، وتُبخر أنفاسي رائحة كريهة.

أنداح رعباً وأنا أرى صورتي فيّ مسوخي التي رسمتها. أهرع إلى جاري «أبو أنيس» الذي يسكر كثيراً وينسى قليلاً: ليقول لي من خلال دموع حبيسة أنفة:

ـ هدئي من روعك.. العالم لا يزال بخير.

ـ أي خير يا (ابو أنيس)؟ أنا جلد هرم مشلوح على كومة من العظام والعفن. الأرض التي أقف عليها اقتلعوا (بازلتها) لأغوص في أحشائها السوداء. انما جئتك ياصديقي لتدلني على درب النسيان.

(كنت أتوقع من (ابو أنيس) ان ينصحني بشرب العرق عالريق)

ـ عليك بالبرانا[1]...

---

(١) البرانا ـ من الطقوس البوذية.

www.alkottob.com

ـ أهي مخدّر جديد يساعد على النسيان؟

ـ انها اشعاع قوّة الأشياء. لكل شيء قوّة خاصة به. تخيّلي وجود قارورة فارغة في أسفل عمودك الفقري، وركزّي على القوّة المنبعثة من الشعاع واملئي القارورة بها.

ـ كيف أطيق هذا الجلد وأنا امرأة مشلوعة من رعب الليالي وصدور الأحبّة الذين رحلوا وتركوا بصماتهم الدامية في قلبي؟ كيف اركّز انتباهي وأتمحور حول أشياء بعيدة.. لم أمارسها من قبل؟ اسمع ياصديقي:

«في ليلة من الليالي كان أهالي قريتي مهدودين من الفلاحة والجنس، ناموا باستغراق شبيه بالموت. شعّ نيزك وهاج يأخذ الأبصار والألباب. تسلل غرباء أضرم الوهج نيراناً وقتل الغرباء النواطير ونهبوا الأراضي والمحاصيل. علّل الناس ما حدث بغضب الإله عليهم، ولاموا أنفسهم لتقصيرهم في عبادته. ولو أنهم قد عرفوا ان اليقظة هي الأولى في قائمة الايمان والعبادة، لخففوا اللوم عن أنفسهم وسلكوا مسلكاً آخر. توافدوا إلى المساجد والكنائس وهم يحملون مسبحات طويلة ويرددون:

ـ يالطيف.. يالطيف. اجعل للبلاء تصريف.

وحمّلوا سيقان النساء الوزر الأكبر: لو لم تكشف المرأة عن ركبتيها وتظهر بطّة ساقها، لصانهم الله، وحفظ أراضيهم وأعراضهم وغلالهم. عندما كان القمر يُصاب بخسوف كانوا يعتقدون ان صوتاً قد ابتلعه، فيصعدون مسرعين إلى أسطحة

www.alkottob.com

منـازلهم، يصبّون زيت الكاز على أكوام الهشيم التي جمعوها خصيصاً لهذا الغرض، ويضرمون النار فيها. ثم يطقطقون على صفـائح معدنية لارعاب الحوت وعصر القمر من جوفه. فلكل ظاهــرة قوّة خارجـة عن مداركهم، تعليل وسلوك يستهـويهم، ويبـدعـون بالتفنن به وإخصابه، بخيالهم وغيبّياتهم التي تفوق خصب بيادرهم. في صخب غضب الإلـه وردّة الفعل الناجمة عنهـا، قبضت أحـلامي على ورقـة مسافرة لجوجة في هربها، مكتوب عليها الحرية. كانت الورقة ندّية الدمع. سألتها عن سبب دمعهـا. قالت لي انهـا غريبـة ووحيدة، وان النـاس منافقون، محبتهم لها لا تتعدى حدود الزعيق والأقوال، يتشدقون بها في كل المناسبات. والزنزانات تلفظها أنيناً موجوعاً من كواها الضيقّة. قلت لها مواسية بأنني أحبّها فعلاً، وسوف اترجم محبتي لها إلى أفعال ومواقف. غاصت في طيّات الأحلام وهي مشككة بقولي، وأقسمت ان أخلص لها وأحارب من أجلها ما دام فيّ عرق ينبض بالحياة. وكـانت الـ «لا»، يافـطات ولافتـات مختلفـة الحجوم والاشكـال والزخرفة والوعيد. دقّت إلى الأرض بثبات وشرعّت أعلاماً وبيارق تخفق فوق مهد الطفولة وأرض الوطن.

لا تسرق.. لا تحب.. لا تتنفس.

أطع الله وأباك وأمك.. والشرطي.

وكنت هوجـاء، ولجـوجـة. أردت ان أنـزع كلا لافتـات ويافطات الـ «لا»، وأحرقها وأدفن رمادها في بئر عميق. في حرم

www.alkottob.com

الجـامعـة الامـريكية يقبضـون عليّ، يدقـوّن رأسي بأعقـاب بنـادقهم، يمـزقون ملابسي، يسحبونني من شعري، وببساطة يحكمون انني عاهرة!

أرتمي على صدر حبيبي طوفاناً من الأحزان والنقمة، يقول لي الحديد بُلى ونحن لن نبلى. أعرّش عليه دالية غضب وثورة. وحبيبي يحمـل تجـربـة أعـوام طويلة من الاضـطهاد والسجن والنفي. زاده زادي، طموحه الحرية والشبع لكل الناس.

وأنا هوجاء ولجوجة، أريد ان أغيّر العالم بسرعة. وحبيبي يترجم حبّه (ورداً على طول الطريق الذي ينفي الموت). وهو يؤمن ان رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة. وقطرة مياه تحيي غرسة، والغـراس هي ام الحقـول والبسـاتين والغـابات. في الأماسي الـطويلة كنّـا نرقص ونغني ونحن مشحـونين بدمـوع يعـزّ علينا هدرها. يقول لي حبيبي وهو يراقصني، أنت مستحيلي.. فيردد الأصـدقـاء، هي مستحيلنا جميعاً. وأحس بأهميتي من خلال ورقتي الخضـراء التي قبضت عليها احلامي يوماً، وعرشتّ في الـذاكرة والقلب.. ويروضني حبيبي فكرياً وعاطفياً لأصبّ في النبع الذي ينهل منه. وتخط أقدامنا المعربدة طريقها إلى البحر، نفتـرش الصخور، نعبث بالنباتات التي تطل من شقوقها ونحن

www.alkottob.com

نعبّ رائحة البحر والليل والملح. نتأمل بحرنا بخوف ونتساءل: «بيروت يامدينتنا، كيف نسّد المجاري المفتوحة على بحرك الأزرق نحن الأصدقاء التي جمعتنا الكلمة وحكم علينا بالغربة فيك؟.»

يتأملني «أبو أنيس». يفرغ كأس العرق في جوفه مرّة واحدة. يفضّ جريدة لفّت بها بطحة عرق جديدة. يقع بصري على صورة جماعية لاناس من مختلف الأجناس والأعمار، وتعليق كُتب تحت الصورة:

عشرات الملايين من البشر ضحيّة الجنون السياسي في العالم.

أشدّ على يد أبي أنيس مودعة:

ـ البرانا هي الحب الذي زرعه حبيبي ورداً على طول الطريق الذي ينفي الموت.

بيروت ١٩٨٠

www.alkottob.com

www.alkottob.com

- ١ -

ـ أتمنى ان تنشب حرب ضروس . حرب حقيقية .

ـ سأفتقدك ياحبيبي .

ـ في الحرب لا وقت للحب .

ـ أمن أجل هذا تتمنى ان تقع الحرب؟

ـ لا . . من أجل ان تسقط الأقنعة وتتعرّى الوجوه . مواجهة الموت من أنبل وأصدق المواقف . ولقد كشفت حروب سابقة عن زيف الكثيرين . رأيت رجالاً يرتعدون ويبولون في سراويلهم وسخرت منهم .

الحرب تخلق أوضاعاً سليمة .

ـ واذا لم تقع الحرب؟

ـ لابدّ ان يحدث أي شيء!

ـ ما رأيك ان تقتلني؟

ـ سأقتلك قبل ان اذهب إلى الحرب .

ـ هل تحبني إلى هذا الحدّ؟

ـ ربما . . .

ـ هل أنت صادق حقّاً في قتلي قبل ان تذهب إلى الجنوب؟

ـ أجل . . .

www.alkottob.com

ـ اذن اقتلني في ليلة بروقها اكثر من أمطارها، تتوسَّدني ياحبيّ حتى الفجر، وتقتلني . . أحب ان أموت مهدودة من الفرح .

ـ ٢ ـ

وقعت الحرب . هرعت إلى حبيبي . . وكانت هذه ليلتي الموعودة . بروقها أكثر من أمطارها .

اشتعلت بالبروق ورقصت كالمجدلية قبل اغتسالها من الخطايا .

فتح حبيبي لي صدره، وقبلنيّ قبلة حارقة .

استعجلته قائلة : هذه ليلتي الموعودة . . ان جسدي يشتعل بالزنابق .

وأحبني كثيراً حتى نهنهني .

ـ ستقتلني؟

ـ لن اقتلك حتى لا يكون ذهابي إلى الحرب انتحاراً .

ـ بل ستقتلني . . .

وناولته المسدس .

قتلني حبيبي وذهب إلى الحرب مستعجلاً . وأكلني شوقي اليه .

بيروت ١٩٧٧

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

قضى وديع عشرين عاماً في دير الصليب[1]، ونسيته القرية.

اليوم مات وديع في دير الصليب، وتذكرته القرية.

موته المنسي، ذكر القرية بالجنون، وبأحزانها القريبة.

لكل قرية مجنون، فمثل هذا الأمر ضرورة ملحّة لإغناء التراث ورصانة العقلاء.

ومجنون القرية يطلق عليه في العادة لقب «أخوث»، وقصص هذا الأخوث غنيّة على الدوام. لا يخجل الكبار مطلقاً من روايتها للصغار:

وديع جعلت منه الظروف الشاذة ـ التي ربما كانت في صالحه ـ مجنون قرية الساقية الوحيد في تلك الفترة من الخمسينات. لأن الجنون الجماعي استشرى فيما بعد بشكل خطر ورهيب. وقصص هذا الجنون ستبقى إدانات وغصّات ونكسات في التاريخ والحلق. يخجل الآباء من روايتها للأبناء.

أبتليت عائلة «ابو وديع» بمرض الزهري واستفحل أمره في أفرادها. فنهشهم نهشاً، الفرد تلو الآخر. وأدى بهم في نهاية المطاف إلى الجنون.. وكان من سوء حظ هذه العائلة المنكودة

(١) دير الصليب ـ مستشفى الأمراض العقلية في لبنان.

www.alkottob.com

والمنكـوبة بالزهري، ان وديعة ام وديع كانت مخصابة وتنجب توائم باستمرار على مدار الشهور والأعوام. لم يلمحها أحد من سكان قرية الساقية إلاّ وهي منتفخة البطن ومتوّردة جداً. وأسباب ابتلاء هذه العائلة بالزهري، ليست شائعات أو تأويلات كما يزعم البعض حفظاً على ما تبقى من حياء وجه القرية. والحقيقة ان هذا المرض اللعين جاءَها عن طريق الوراثة، وعدوى الوراثة حقيقة علمية مؤكدة! وديعة ام وديع ذهبت يوماً إلى المدينة، والمدينة بحـر ملوّث وكباريهات وخمر وغرباء، ضاعت وديعة فيها لعدّة أشهـر، ولمّـا عادت إلى القـرية كانت تطفـح بالزهري. وبقع الزهري كما هو معروف وردية، وبشرة وديعة داكنة السمرة. نساء القـرية كلهن دون استثنـاء حسـدن وديعـة على توّرد بشرتها، وطـالبن ازواجهن بإلحاح ان يأخذونهن إلى المدينة في الحال ليتوردن مثل وديعة، ولكنهن غيرن رأيهن فيما بعد عندما طقّ عقل وديعـة. ومن الغريب ان أعراض جنون الزهري كانت لا تظهر على أفـراد اسرة «ابو وديع» إلاّ بعد الزواج والانجاب.. مثلاً، شمسَـهْ أخت وديع، ظهـرت عليها هذه الأعراض بعد انجابها العديد من التوائم، وطلاقها من زوجها الذي كانت تحبّه كثيراً. يومهـا ظهـرت شمسَهْ عارية في ساحة القرية وعلى الأسطحة. عرضت قدّهـا وطـولها وعرضها ومفاتنها على الملأ من الرجال الذين بعد ان تمتعوا، استغفروا الله وأخذوها إلى الجرد أوثقوها بالحبال وأنهالوا عليها ضرباً بالبلطات لطرد الأرواح الشريرة منها.

www.alkottob.com

امتلأت شمسة ندوباً وجروحاً وقروحاً، وظلّت الأرواح الشريرة مدمنة عليها. في الليل كان أهالي قرية الساقية يسمعون عويل شمسَهْ، ويشبهونه بعواء ذئبة مكلومة.

في أحد الأيام وجدت بقايا عظام ونتف لحم ودماء في الجرد الذي سُجنت فيه شمسَهْ. ضرب أهالي القرية كفوفهم ببعضها، وقالوا:

ـ مسكينة شمسَهْ أكلها الضبع.

بعد ان أكل الضبع شمسَهْ ظهرت أعراض الجنون على أخيها وديع كان يومها عريساً.. حديث العهد بالزواج. هجم على زوج شمسَهْ الضخم، بطحه أرضاً، وعراهّ من أليته، ثم ضاجعه في ساحة القرية. ضحك الرجال مبتلعين اثارة شبْقَه. وخجلت النسوة. ضُرب وديع على اثرها ضرب البهائم حتى سالت دماؤه، ومن يومها حجز في دير الصليب، كان في العشرين، وهناك قضى نصف عمره وصار حكاية. مرّت السنون والتهب خلالها جنون الزهري، وكانت هذه ظاهرة فريدة في التاريخ المعاصر لقرية الساقية والقرى المجاورة. الذين لم تطالهم عدوى الزهري، وهم قلّة تعد على الأصابع، بدا عليهم الخوف والقلق، لأن هذا الجنون كان جماعياً ومستشرياً إلى حدّ رهيب، تعدى حدود التعريّ والمضاجعة العلنية، إلى الحرق والتشويه والقتل والتدمير الآدمي.

www.alkottob.com

في غمار هذا الجنون يتذكر العقلاء وديعاً:

مسكين وديع لقد ظلمناه، ماذا حلّ به ياترى؟ هل مازال على قيد الحياة؟

ربما سقطت قذيفة على دير الصليب وقضت على وديع ومن معه.

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. حقاً ان الجنون حصد العديد من الأبرياء ودمّر مدناً وقرى كانت آمنة تضرب الأمثال بجمالها. ولكن دير الصليب لم يصاب بأذى، لأن الجنون هوية حضارية!

في هدنة جنون دير الصليب مات وديع مرتاحاً، حملوا جثمانه إلى قرية الساقية كانت مياهها جافة وبيوتها مطفأة وأشجارها محروقة وسكانها من العواجيز.

وفود عديدة من قرى مجاورة أمّت قرية الساقية لتشارك في مأتم وديع، وفي هذا المأتم المهيب، تذكر الناس أيامهم الماضية وشمسَهْ. ونعبوا..

تحوّل مأتم وديع الذي قضى عشرين عاماً في دير الصليب لتهمة الصقت به زوراً وبهتاناً.. إلى مأتم شهيد.

بيروت ١٩٧٧

www.alkottob.com

الفهرس

الاهداء ٥
المخاض ٧
شائعة ١٩
الصفر ٢٧
وصية القوقعة البيضاء ٣٧
الحرب ٤٣
موت نافذة ٥٥
الشرخ ٦٥
الروزنامة ٧٢
حارس القطيع ٨٢
نحول الرماح ٨٧
البصمات الدامية ٩٣
الحب والحرب ١٠٢
هستيريا من الزهري ١٠٥

www.alkottob.com

صدر للكاتبة:

١ ـ مدينة الاسكندر قصص عام ١٩٨٠ وزارة الثقافة
٢ ـ امرأة من برج الحمل قصص ١٩٨٦ وزارة الثقافة
٣ ـ بيروت كل المدن كتابات قيد الطبع

٣٠٠٠ / ٣ / ١٩٨٨

مطابع **ارابيا**
بيروت ـ لبنان

www.alkottob.com

إيبلا للنشر والتوزيع

دمشق ــ الجمهورية العربية السورية

ص . ب : ١١٦٤١ - هاتف : ٢٢٥٧٢٣

www.alkottob.com

السعر L 50. او ما يعادلها ٥٠ ل . س

www.alkottob.com